

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف
لجنة من العلماء
بإشراف
مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الثامن والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الثامن والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٩٢

ســـورة الجن

مكية وآياتها ثمان وعشرون آية

صلتها بمـا قبلها :

لَمَّا ذكر الله تعالى فى سورة نوح قوله :(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا) ، وقال فى هذه السورة فى شأن كفار مكة : (وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقًا) . فالاتصال بالله سبب لرغد العيش .

كما أن هناك توافقًا بين قوم نوح والعرب فى أن كلاً منهما كانوا عبدة أوثان ، وتزيد سورة الجن أنَّها جاءت لتبكت العرب وتوبخهم على تباطئهم فى الإيمان برسول الله ﷺ وكان الجن خيرًا منهم إذْ أقبل على الإيمان مَن أقبل منهم وهم من غير جنس الرسول – عليه الصلاة والسلام – .

بعض مقاصد هـذه السورة :

١ - تحدثت السورة فى أولها عن أن الله - سبحانه - أوحى إلى رسوله ﷺ أن فريقًا من الجن استمعوا إلى القرآن الكريم وأنَّه قد أعجبهم ، وأخذتهم قوة بلاغته وجميل هدايته فدفعهم ذلك إلى الإيمان به فور سماعهم له ، وعاهدوا أنفسهم ألَّا يشركوا بالله أحدًا ، وأنهم عظموا ربهم وقدسوه ونزهوه عن اتخاذ الصاحبة والولد .

٢ - أبانت السورة بعد ذلك أن الجن - بعد بعثة الرسول ﷺ أرادوا أن يَصلوا إلى السماء لاستراق السمع فوجدوها قد ملئت بالملائكة لحراستها ، وأن الشهب الثاقبة ترصدهم ، وترجمهم إذا ما حاولوا الدنو منها .

٣ - أوضحت السورة أن كُلاً من الجن والإنس فريقان ، فريق مؤمن تقى قد اهتدى إلى الصراط المستقيم ، وفريق كافر شقى .

٤ - نبهت السورة مشركى مكة على أن رسول الله ﷺ لا يملك لهم ضرًّا ولا رشدًا ، وإنما الذى يملك ذلك هو الله وحده ، وأنه لا يمنعه ولا ينقذه من عذاب الله أحدٌ إن عَصَاه

وخالفه ، وأنه لن يجد له ملجأً ومَعاذًا يلجأُ إليه وينتصر به من دون الله إلّا إذا قام بتبليغ رسالة ربه فأنذرهم وبشرهم .

٥- وجاءت خاتمة السورة ونهايتها ببيان أن الله وحده - جل شأنه - هو العليم بمعرفة الغيب فلا يظهر أحدًا على غيبه إلّا من اختاره واصطفاه لنبوته ورسالته فيظهر له ما يريد من الغيب ، وأنه يحفظ الرسول ﷺ ويصون رسالته من استراق الشياطين وتخليطهم : (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) .

ونرى قبل التفسير أن نعرض لمسائل :

١- الملائكة :

وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، خلقهم الله من نور وفطرهم على الطهر وناط بهم أمورًا كثيرة ؛ فمنهم رسل الله إلى أنبيائه ، ومنهم حملة عرش الرحمن ، والحفظة ، والكتبة ، وملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلّا الله ، وأنهم - عليهم السلام - قد أمدهم الله بالقدرة الشديدة على الأعمال العظيمة التى لا تدانيها قدرة ولا يصل إليها الإنس والجن ، وقد أمكنهم الله من التشكل والتصور بالأشكال الجميلة التى لا تحكم عليهم ، ويراهم الناس عليها ، أما صورهم الأصلية فلا يبصرهم عليها إلّا من شاء الله من عباده كالأنبياء والمرسلين .

٢- الجن :

واحده (جنى) كروم وروى وترك وتركى : وهم جنس من خلق الله ذوو أجسام عاقلة تغلب عليها النارية كما يشهد لذلك قوله تعالى : « وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ » ، وهى قابلة للتشكل بالأشكال المختلفة التى تحكم عليهم ، ومن شأنها الخفاء ، وترى بصور غير صورها الأصلية التى لا يراهم عليها إلّا الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ومن شاء الله - تعالى - من خواص عباده ، ولها قوة على الأعمال الشاقة العظيمة التى يعجز عنها عامة

البشر ، قال تعالى : « يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ » ، ومنها طوائف كريمة محبة للخير ، وأخرى دنيئة خسيسة محبة للشر . (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ) ، ولا يعرف أنواعهم وأصنافهم إلّا الله ومن أطلعه الله على ذلك من عباده .

وأكثر الفلاسفة ينكرون الجن ،ونفى وجودهم كفر صريح ؛ لأن الله قد ذكرهم فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع ، ومنه ما هو مذكور فى هذه السورة الكريمة.

وجمهور أرباب الملل معترفون بوجودهم كالمسلمين ، وإن اختلفوا فى حقيقتهم ويسمونهم بالأرواح السفلية .

٣- الشياطين :

ذهب قوم إلى أنهم ولد إبليس - عليه اللعنة - ولا يموتون إلّا مع أبيهم ، فهم على هذا القول جنس مستقل ، أشرار بجبلتهم وطبعهم .

وذهب آخرون إلى أن الشياطين هم الأشرار والمَرَدة من الجن ، ويطلق اسم الشيطان على الشرير المتمرد من الإنس أيضًا ، قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا » ولكل وجهة . والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥))

المفردات :

(أُوحِيَ) : الوحي : بمعنى الإيحاء لغة : الإعلام بالشيء على وجه الخفاء والسرعة ، ومعناه فى الشرع : إعلام الله لأنبيائه ما يريد إبلاغه إليهم من الشرائع والأخبار بطريق خفى ، ويكون بطريق الإلقاء فى القلب دفعة ، أو بالكلام من وراء حجاب بحيث يسمع النبيُّ كلامَ الله ولا يراه ، أو بإرسال الملك إلى الرسول وهو المراد هنا .

(نَفَرٌ) : جماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة .

(عَجَبًا) : بديعًا مباينًا لسائر الكتب فى حسن نظمه وصحة معانيه .

(الرُّشْدِ) : الصواب ، وقيل : التوحيد والإيمان .

(جَدُّ رَبِّنَا) : عظمته وجلاله ، أو ملكه وسلطانه ، أو غناه .

(سَفِيهُنَا) : السفه : خفة العقل ، أو الحمق والجهل .

(شَطَطًا) : الشطط : مجاوزة الحد فى الظلم وغيره .

التفسير

١ - (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوٓا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا) :

أى : قل لهم يامحمد : إن الله أخبرنى على لسان جبريل - عليه السلام - أن نفرًا من الجن قد ألقوا بسمعهم إلى القرآن الذى كنت أتلوه ، فلما سمعوه قالوا : إنا سمعنا كلامًا جليل القدر عظيم الشأن ليس على نمط غيره من الكتب ، بديعًا فى حسن نظمه ودقة معانيه .

٢ - (يَهْدِيٓ إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا) :

أى : وهو مع علو منزلته يدل ويرشد إلى الطريق الحق والصراط المستقيم ، ويدعو إلى الإيمان بالله وتوحيده فبادرنا فور سماعنا له باعتقاد ماجاء به ، ولرسوخ ذلك فى قلوبنا ، واطمئناننا إلى أنه منزل من عند ربنا لن نعود إلى الإشراك بالله أبدًا ، بل نفرده وحده بالألوهية والربوبية .

٣ - (وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا) :

الجد معناه : العظمة ، وفيه الحديث : « كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة جدَّ فينا » أى : جل قدره .

أى : وأنه - سبحانه - تعالت عظمته وتسامى جلاله قد تنزه عن أن يتخذ صاحبة أو ولدًا يحتاج إليهما ويستأنس بهما ؛ فالشأن فيهما ذلك ، إذ الرب - جل شأنه - يتعالى عن هذا وأمثاله كما يتعالى ويتعاظم ويتنزه عن الأنداد والنظراء .

٤ - (وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا) :

أى : وأن الأحمق فينا والجاهل منا - وهو الذى خف عقله وذهب صوابه - كان يقول على الله قولا شططًا بعيدًا عن الحق والصدق والصواب ؛ إذ قد أشرك به ، ونسب إليه الصاحبة والولد . والله - سبحانه - منزه عن ذلك . وقيل : المراد من السفيه هو إبليس ، أو كل مارد من الجن كافر بالله .

٥ - (وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِبًا) :

أى : وأننا حسبنا وظننا أن أحدًا من الإنس والجن لن يجترئ على الله ويفترى عليه وينسب إليه الصاحبة والولد كذبًا ، فلما سمعنا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون ويفترون ، وهذا يشير إلى أن الجن قبل سماعهم القرآن كانوا يظنون أن إبليس أو المتمرد من الإنس والجن صادق فى نسبة الصاحبة والولد لله ، فلما سمعوا القرآن أيقنوا أنّه كان كاذبًا فى ذلك فسموه سفيهًا .

وهنا يجمل بنا أن نتعرض لاجتماع الرسول ﷺ بالجن ورؤيته لهم لوثوق الصلة بينه وبين ما جاء فى هذه السورة فنقول :

اختلفت الروايات فى أنه ﷺ رأى الجن وكلمهم على قولين :

فالقول الأول : وهو مذهب ابن عباس : أنه - عليه الصلاة والسلام - ما رآهم ، قال : إن الجن كانوا يقصدون السماء فى الفترة بين عيسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - فيسمعون أخبار السماء ويلقونها إلى الكهنة ، فلما بعث الرسول ﷺ حرست السماء وحيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت الشهب عليهم فرجعوا إلى إبليس - عليه اللعنة - فأخبروه بالقصة ، فقال : لا بد لهذا من سبب ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها واطلبوا السبب ، فوصل جمع من أولئك الطالبين إلى تهامة فرأوا رسول الله ﷺ فى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا : هذا والله هو الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك رجعوا إلى قومهم وقالوا : يا قومنا (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا) فأخبر الله نبيه محمدًا ﷺ عن ذلك الغيب وقال : (قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ) كذا وكذا ، قال : وفى هذا دليل على أنه ﷺ لم ير الجن ، إذ لو رآهم لما أسند معرفة هذه الواقعة إلى الوحى ، فإن ما عرف وجوده بالمشاهدة لا يسند إثباته إلى الوحى .

والقول الثانى : وهو مذهب ابن مسعود : أن الرسول ﷺ أتاه داعى الجن فذهب معه وقرأ عليهم القرآن ، وأن ابن مسعود سار مع رسول الله ﷺ حين انطلق به وبغيره يريه آثار الجن وآثار نيرانهم .

وطريق التوفيق بين المذهبين أن ما ذكر ابن عباس وقع أولًا ، فأوحى الله إلى رسوله بهذه السورة ، ثم أمر ﷺ بالخروج إليهم بعد ذلك كما روى ابن مسعود .

هذا ، وفى أمر الله رسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحاه الله إليه به فى واقعة الجن فوائد : منها أن يعرف الصحابة أنه - عليه الصلاة والسلام - كما بعث إلى الإنس بعث إلى الجن ، وأن تعلم قريش أن الجن مع تمردهم لمَّا سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا بالرسول - عليه الصلاة والسلام - وفى هذا تعريض بهم لأنهم يعرفون ذلك فإنَّ القرآن الكريم قد نزل بلغتهم ولم يستطيعوا معارضته والإتيان بمثله أو بسورة من مثله مع تحديهم بذلك ، ولكنهم - لظلمهم بآيات الله يجحدون ، ومنها أن المؤمن من الجن يدعو غيره من قبيله إلى الإيمان به « يَا قَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ »[1] ، ومنها أن الجن يسمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا .

(وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾)

المفـــردات :

(يَعُوذُونَ) : يلتجئون ، من العَوْذ ، وهو الالتجاء إلى الغير والتعلق به .

(رَهَقًا) : الرهق : غشيان المحارم وإتيانها .

---

(١) من الآية ٣١ من سورة الأحقاف .

(لَمَسْنَا السَّمَآءَ) : اللمس : المس ، فاستعير للطلب ؛ لأن الماس طالب متعرف ، أى : طلبنا بلوغ السماء .

(شُهُبًا) : جمع شهاب ، وهو النجم المحرق .

(رَصَدًا) : راصدًا ومستعدًا ومترقبًا له .

التفسير

٦- (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) :

قيل : إن الرجل من العرب فى الجاهلية كان إذا أمسى فى قفر من الأرض قال : أعوذ بسيد هذا الوادى أو بعزيز هذا المكان من شر سفهاء قومه ، يريد الجن وكبيرهم ، فيبيت فى جواره حتى يصبح .

قال مقاتل : كان أول من تعوذ من الجن قوم من أهل اليمن ثم من بنى حنيفة ، ثم فشا ذلك فى العرب ، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم .

أى : وأنه كان رجال من الإنس يلجأون ويستجيرون بالجن رجاء رعايتهم وأملًا فى حفظهم من شرور سفهاء الجن ومردتهم فزاد الإنسُ الجنَّ بسبب استعاذتهم بهم تكبرًا وصلفًا وعتوًا حيث قالت الجن : سُدْنا الإنس والجن ، أو أن الجن زادوا الإنس بسبب هذا الالتجاء من الإنس زادوهم فرقًا وخوفًا ، بل زادوهم كفرًا بالله ، إذ الاستعاذة بغير الله كفر .

٧- (وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا) :

أى : وقال الجن بعضهم لبعض : إن كفار الإنس حسبوا وظنوا كما حسبتم - يا معشر الجن - أن الله - سبحانه - لن يبعث أحدًا بعد الموت ، وأنهم كانوا يقولون : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »[1] فقد أنكروا البعث كما أنكرتموه أنتم ، أو : أن الإنس ظنوا كظنكم أن الله لن يرسل رسولًا إلى أحد من العباد ، وقد أخطأ الإنس وأخطأتم معشر الجن ؛ فالله قد أرسل محمدًا ﷺ وأنزل عليه هذا القرآن الكريم .

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الأنعام .

٨ - (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا) :

أى : وأننا طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها فأصبناها وصادفناها ملئت بالحفظة من الملائكة الشداد الذين يحرسونها ، وبالشهب والنجوم المحرقة التى كانت تنقض على الجن عند استراق السمع ، قال بعضهم : إن رمى الجن بالشهب كان بعد مبعث الرسول ﷺ وهو إحدى آياته ، والصحيح أن ذلك كان قبل مبعث الرسول - عليه الصلاة والسلام - فلما بعث زاد ذلك إنذارًا بحاله وتنبيهًا إلى إرساله ، أى : زيد فى حرس السماء حتى امتلأت من الملائكة والنجوم كما يشعر بذلك قوله تعالى : (مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا) .

قال ابن عباس : بينما النبى ﷺ جالس فى نفر من أصحابه إذْ رُمِىَ بنجم فاستنار ، فقال : « ما كنتم تقولون فى مثل هذا فى الجاهلية » ؟ قالوا : كنا نقول : يموت عظيم ، أو يولد عظيم ، فقال النبى ﷺ : « إنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا - سبحانه وتعالى - إذا قضى أمرًا فى السماء سبّح حملة العرش ثم سبّح أهل كل سماء حتى ينتهى التسبيح إلى هذه السماء ، ويستخبر أهل السماء حملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهى الخبر إلى هذه فيتخطف الجن فيرمون ، فما جاءوا به فهو حق ولكنهم يزيدون فيه » ، وقال ابن قتيبة : كان (الرمى) ولكن اشتدت الحراسة بعد المبعث ، وكانوا من قبل يسترقون ويرمون فى بعض الأحوال فلما بعث محمد ﷺ منعت (الجن) من ذلك أصلًا .

٩ - (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا) :

أى : وأننا كنا قبل ذلك نتخذ من السماء مواضع للسمع نجدها خالية من الحرس والشهب ، أو صالحة للترصد والاستماع ، فالآن ملئت المقاعد والمواضع كلها بالملائكة والشهب فمن يحاول أن يقترب للاستماع يجد له شهابًا قد أُرصد له ليرجم به . وقال مقاتل : رميًا بالشهب ورصدًا من الملائكة

(وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾)

المفردات :

(دُونَ ذَٰلِكَ) : أقل منهم صلاحًا ، أو غيرهم فى الصلاح .

(طَرَآئِقَ قِدَدًا) طرائق : مذاهب ، قددًا : جمع قِدَّة ، من قَدَّ ، كالقطعة من قَطَع أى : كنا ذوى مذاهب مختلفة .

(نُّعْجِزَ ٱللَّهَ) : نفوته ونتفلت منه .

(بَخْسًا) البخس : نقص الشىء على سبيل الظلم .

(رَهَقًا) : ظلمًا ومشقة عليه بالزيادة فى آثامه وسيئاته .

(الْقَاسِطُونَ) : الجائرون والمائلون عن طريق الحق .

(تَحَرَّوْا) : قصدوا وتوخَّوْا طريق الحق والصواب .

١٠ - (وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) :

أى : وأننا - معشر الجن - لا نعلم ما الله صانع بأهل الأرض بسبب امتلاء السماء بالحرس والشهب وانقضاضها وتهافتها ، وتغير الحال عما ألفناه ، أَحَدَثَ ذلك لعذاب وشر يريد - سبحانه - أن ينزله بأهل الأرض ؟ أم لخير يريده الله لهم ؟ أو أننا لا ندرى أن إرسال محمد الذى من أجله منع استراقنا للسمع وقعودنا فى مواضع فى السماء ، أيكون ذلك نذير عذاب لهم ؛ فإنهم قد يكذبونه فيهلكون بتكذيبه كما هلك من كذّبوا رسلهم من الأمم السابقة أم يكون ذلك بشير خير لهم فإنهم قد يؤمنون به ويهتدون ، ولا يخفى ما فى قول الجن : (أَشَرٌّ أُرِيدَ) من الأدب حيث لم يصرحوا بنسبة الشر إلى الله - عز وجل - كما صرحوا به فى الخير والرشد وإن كان فاعل الكل هو الله - تعالى - فقد جمعوا بين جم الأدب وحسن الاعتقاد .

١١ - (وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا) :

أى : وأنا منا الأبرار المتقون ، ومنا قوم دون ذلك فى الصلاح وهم المقتصدون غير الكاملين فيه ، أو : ومنا سوى ذلك وهم الطالحون الفاسدون الذين ليس لهم صلاح وهم الكافرون .

(كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا) أى : كنا فى اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة ، أو كنا ذوى مذاهب متفرقة ؛ فالطرائق - وقد وصفت بالقِدَد - تدل على معنى التقطع والتفرق والاختلاف كأن كل طريق لامتيازها مقطوعة عن غيرها .

١٢ - (وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِى الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا) :

أى : وأننا علمنا وتيقّنّا بالاستدلال والتفكر فى آيات الله وبما شاهدناه من قدرته أننا فى قبضته وقهره ، ولن نعجزه فى الأرض مع بسطها وسعتها وكثرة فجاجها وتشعب طرقها ، فلا نفوته إذا أراد بنا أمرًا أينما كنا فيها ، ولن نستطيع أن نفلت منه - عز وجل - هربًا إلى السماء ، وإن هربنا فلن نخلص منه ؛ وذلك لشدة قدرته وعظيم سلطانه .

١٣ - (وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰٓ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا) :

هذا عود ورجوع من الجن إلى تذكر نعمة الله عليهم بالإيمان به واهتدائهم بسماع آيات القرآن وافتخارهم بذلك ، وفى الحق إنه لمفخرة وشرف رفيع لهم .

أى : وأننا حين سمعنا القرآن العظيم اهتدينا به وآمنا بالله الذى أنزله ، وصدقنا محمدًا ﷺ فى رسالته من غير تردد ولا تريث (فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا) أى : فمن يصدق بالله فإنه لا يخشى نقصانًا من حسناته ، وإنما يجازى عليها كلها الجزاء الأوفى ، ولا يخاف - كذلك - أن يرهق ويشق عليه بالزيادة فى آثامه وسيئاته أو تغشاه ذلة ، فعَدْلُ الله يأبى ذلك ، قال تعالى : « إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا »[1] .

١٤ ، ١٥ - (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ[2] فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) :

أى : وأننا - معشر الجن بعد سماعنا القرآن - مختلفون ومتفرقون ؛ منا من انقاد وأسلم وصدق برسالة محمد ﷺ ومنا من جار وعدل عن الحق ، وحاد عن الطريق القويم .

وقد رُوى عن سعيد بن جبير - رحمه الله - أن الحجاج بن يوسف الثقفى - قال لسعيد حين أراد قتله : ما تقول فىَّ ؟ قال سعيد : قاسط عادل ، فقال القوم : ما أحسن ما قال ؛ حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل ، فقال الحجاج : يا جهلة ؛ إنه سمانى ظالمـًا مشركًا ، وتلا لهم قوله تعالى : (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) ، وقوله - عز شأنه - : « ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » .

(فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا) أى : فمن انقاد واختار الإسلام واتبع الرسول - عليه الصلاة والسلام - فأولئك الذين قصدوا الصواب والحق ، وتوخَّوْا سبيل النجاة حتى اهتدوا إلى رشد عظيم لا يبلغ كنهه ومداه إلَّا الله .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة النساء .

(٢) من قسط قسطاً بالفتح ، وقسوطاً : إذا جار وعدل عن الحق ، والقسط بالكسر ، والإقساط : العدل .

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) أى : وأما الكافرون الجائرون البعيدون عن الحق والإيمان فكانوا فى سابق علم الله الأزلى ، كانوا حطبًا للنار التى وقودها الناس والحجارة ؛ تسعر بهم كما تسعر بكفرة الإنس .

(وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾)

المفـــردات :

(غَدَقًا) : كثيرًا .

(لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) : لنعاملهم معاملة المختبر الممتحن لنعلم علم ظهور ما يكون من أمرهم : أيكفرون أم يشكرون .

(وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ) : هو من قولهم : أعرضت عنه ، بمعنى أضربت وتوليت وصددت عنه ، أى : أخذت عَرْضًا ، أى : جانبًا غير الجانب الذى هو فيه .

(يَسْلُكْهُ) : يدخله

(صَعَدًا) : شاقًّا يعلوه ويغلبه فلا يطيقه .

(كَادُوا) : قاربوا .

(لِبَدًا) : جمع لِبدة ، وهى الجماعات ، شبهت بالشىء المتلبد المتراكم بعضه فوق بعض ، من ازدحامهم عليه .

(لَن يُجِيرَنِى) : لن يمنعنى ولا يغيثنى من الله أحد .

(مُلْتَحَدًا) : ملجأً وحرزًا .

التفسير

١٦ ، ١٧ - (وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) :

أى : وأن لو سار الكفار من الجن والإنس معتدلين دون ميل أو جور على الطريقة المثلى والنهج القويم والصراط السوى وهو ما جاء به محمد ﷺ من عند ربه لأسقاهم الله المطر الغدق الكثير ، والغيث العميم الذى يحيي الله به نفوسهم ، وينبت لهم به الزرع ، ويدر الضرع ، ويغمرهم فى دنياهم بوافر النعم وجليل الخيرات ، (لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) : لنعاملهم معاملة المختبر لنعلم ما يكون من أمرهم : أيكفرون أم يشكرون ، أى : لنعلم ذلك حاصلًا وواقعًا منهم بعد أن علمناه قديمًا وأزلا ، حتى لا يكون للناس على الله حجة ، بعد أن يظهر ذلك للخلائق ، والقول بإغداق الخير عليهم لاستقامتهم مصداقه قوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »[1] ، وقوله : « وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم »[2] .

---

(١) من الآية ٩٦ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية ٦٦ من سورة المائدة .

وقيل المعنى : وأن لو استقام الجن على طريقتهم التى كانوا عليها قبل سماع القرآن ولم ينتقلوا عنها إلى الإسلام واستمروا على كفرهم لوسعنا عليهم الرزق ، وأغدقنا عليهم من الخير استدراجاً لهم وإمهالاً وإملاء حتى يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، قال تعالى : « وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ٭ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ٭ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ »[1] وقال – سبحانه – : « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ »[2]

والرأى الأول أولى وأحق بالاعتبار لأن كلمة (الطريقة) المعرَّفة بالألف واللام إنما ترجع إلى الطريقة المعروفة المعهودة وهى طريقة الهدى والرشاد . (وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) .

أى : ومن يتولَّ وينأ عن عبادة ربه ويتجافَ عنها فيجعلها فى جانب وهو فى جانب يدخله الله فى عذاب يعلو طاقة ذلك الشقى المعذب ويشق عليه ويغلبه فلا يطيقه .

١٨ – (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) :

قال مجاهد : كان اليهود والنصارى إذا دخلوا بِيَعَهُمْ وكنائسهم أشركوا بالله فيها ؛ وذلك أن النصارى تقول : المسيح ابن الله ، واليهود يقولون : عزير ابن الله ، فأمر الله – عزَّ وجلَّ – نبيَّه والمؤمنين أن يخلصوا العبادة لله وحده ، وألاَّ يدعوا مع الله أحدًا إذا دخلوا المساجد كلها ، هذا وإن الأرض جميعاً مساجد للرسول ﷺ ولأُمته ، فقد ورد فى حديث جابر بن عبد الله الذى أخرجه البخارى : « وجعلت لىَ الأرض مسجدًا وطهورًا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل » وعلى هذا قال : فالمساجد جمع مسجِد – بكسر الجيم – وقيل : المراد بها الأعضاء السبعة التى يسجد عليها ، واحدها مسجَد – بفتح الجيم –

(١) الآيات – ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ من سورة الزخرف .
(٢) الآية ١٧٨ من سورة آل عمران .

وهى القدمان والركبتان والكفان والوجه ، وروى أن المعتصم سأل أبا جعفر محمد بن على ابن موسى الكاظم - رضى الله عنهم - عن ذلك فأجاب بما ذكر ، وقيل : المراد المساجد السجدات ، على أن المسجَد - بفتح الجيم - مصدر ميمى ، قال الحسن : من السنة إذا دخل الرجل المسجد أن يقول : لا إله إلاّ الله : لأن قوله : (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا) فى ضمنه أمر بذكر الله ودعائه .

و قيل المعنى : أفردوا المساجد لذكر الله ولا تتخذوها هزوًا ومتجرًا ومجلساً ولا طرقاً ، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيباً ، وفى الصحيح : « من نشد ضالة فى المسجد فقولوا : لا ردّها الله عليك ، فإن المساجد لم تبن لذلك » .

هذا ، وقد روى الضحاك عن ابن عباس عن النبىّ ﷺ كان ، إذا دخل المسجد قدم رجله اليمنى وقال : « (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا) اللهم أنا عبدك وزائرك ، وعلى كل مَزُور حق ، وأنت خير مَزُور ، فأسألك برحمتك أن تفك رقبتى من النار » وإذا خرج من المسجد قدم رجله اليسرى وقال : « اللّهم اصْبُبْ علىّ الخير صبا ، ولا تنزع عنى صالح ما أعطيتنى أبدًا ، ولا تجعل معيشتى كدًّا ، واجعل لى فى الأرض جَدًّا » أى : غِنًى وقال ابن عباس : المساجد هنا مكة التى هى القبلة ، وسميت مكة المساجد لأن كل أحد يسجد إليها ، أى : يتخذها قبلة له .

١٩ - (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا) :

أى : وأن الله أوحى إلى رسوله أنّه حين قام ﷺ عابدًا ربّه - عزّ وجلّ - فى صلاة الفجر فى بطن نخلة ، أو فى سوق عكاظ يؤم أصحابه كاد الجن يلتصقون يركب بعضهم بعضاً تزاحماً وتراكماً عليه ؛ متعجبين مما رأوه من عبادته واقتداء الصحابة به قائماً وراكعا وساجدًا ، وإعجاباً بما تلاه من القرآن العظيم ، لأنهم رأوا مالم يروْا مثله وسمعوا ما لم يسمعوا مثله ، وقيل : المراد أن الرسول لما قام يعبد الله تلبدت وتجمعت الإنس والجن ، أو المشركون ، وتظاهروا عليه ليبطلوا الحق الذى جاء به ويطفئوا نور الله ، فأبى الله إلاّ أن يتم نوره وينصره ويظهره على من عاداه .

٢٠ - (قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُو رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا) :

سبب نزولها : أن كفار قريش قالوا لرسول الله ﷺ : إنك جئت بأمر عظيم ، وقد عاديت الناس كلهم ، فارجع عن هذا فنحن بخيرك ؛ فنزلت . فأمر الله رسوله أن يجيبهم على قولهم هذا : بأن ما ترونه من عبادتى لله ورفضى الإشراك به ليس مما يتعجب منه ، وإنما يتعجب ممن يدعو غير الله ويجعل له شريكاً ، أو أن يقول لمن تظاهروا وتمالئوا عليه ليبطلوا الحق الذى جاء به : (إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى) يريد ما جئتكم بأمر مستنكر ولا مستهجن إنما أعبد ربى وحده (وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا) وليس ذلك مما يوجب اجتماعكم على مقتى وعداوتى .

٢١ - (قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا) :

أى : قل يا محمد فى محاجة هؤلاء وجدالهم : إنى لا أقدر أن أضركم ولا أن أدفع عنكم ضرًّا ، ولا أستطيع أن أجلب لكم نفعاً ، إنما الضار والنافع والمرشد والمُغوى هو الله - عز وجل - وأن أحدًا من الخلق لا قدرة له على ذلك .

٢٢ ، ٢٣ - (قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ، إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) :

أى : قل لهم يا محمد : إننى لن يستطيع أحدٌ أن يأخذنى فى جواره ويعيذنى ويمنعنى من الله إن أراد بى أمرًا وهذا لأنَّهُمْ قالوا له : اترك ما تدعو إليه ونحن بخيرك . وإننى لن أظفر بملجأ أركن إليه أو معاذٍ أحتمى وألوذ به من غير الله ؛ إذ لا ملجأ ولا منجى منه إلَّا إليه ، وأن المخلَص والنجاة لاتكون إلا بأن أتبع ما أمرنى به ربى ، فأبلغكم ما أرسلت به إليكم ولا أكتم شيئاً كلفنى به - سبحانه - وأوجب علىَّ أن أسْمِعَه لكم من غير زيادة أو نقصان أمَّا عياذى بكم والتجائى إليكم - كما تؤملون وترجــون - أو اعتمادى على نفسى فى الفرار من جزاء ربى وحسابه فإنه لاجدوى منه ولا نفع فيه ، وقيل المراد : قل لا أملك لكم إلاَّ أن أبلغكم رسالة ربى ، أما الكفر والإيمان فلا أملكهما . (وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) أى : ومن يتمرد على الله ويأبَ الإيمان به ربًّا

وبمحمد رسـولا فإن له لا لغيره - من الطائعين الأتقياء - له عذاب جهنم يخلد ويبقى فيه لاينفك عنه ولا يزول ولا يبيد .

(حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾)

المفـردات :

(نَاصِرًا) : معيناً .

(أَمَدًا) : زماناً بعيدًا أو قريباً .

(الْغَيْب) : ما خفي واستتر .

(ارْتَضَى) : اختار واصطفى .

(يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) : الرصد : الحفظة .

(أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ) : علمه علمًا تامًا .

(وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) : ضبط كل شيء معدودًا محصورًا .

التفسير

٢٤ - ﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَايُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ :

هؤلاء الكفار لايزالون يستضعفون المؤمنين ويستهزئون بهم ويستقلُّون عددهم ، حتى إذا رأى هؤلاء المشركون ما تهددهم الله وتوعدهم به من صنوف العذاب وفنونه فى الآخرة ، أو من خذلانهم وهزيمتهم فى الدنيا - كما حدث فى غزوة بدر الكبرى - فسيتبين ويظهر لهم من هم الأضعف ناصرًا ومعينًا وأقل نفرًا وجندًا وعددًا ؟ - هل هم أم المؤمنون بربهم المصدقون برسالة نبيهم ؟ لا شك ولا مرية أن الكافرين لا ولىّ ولا ناصر ولا شفيع لهم ، قال تعالى : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ »[1] ، وأنهم هم الذين ينصرف وينفض عنهم أهلوهم وذووهم يوم القيامة .

أما المؤمنون فلهم فى الآخرة العزة والكرامة والكثرة . قال تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ »[2] ، والملك القدوس - جل شأنه - يسلم عليهم ، قال تعالى : « سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ »[3] ولهم عز النصر واجتماع الشمل وعلوّ الشأن .

٢٥ - ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَّاتُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَدًا ﴾ :

عندما سمع المشركون ما نزل فى الآية السابقة قالوا - إنكارًا له واستهزاء به - : متى يكون ذلك الموعود ؟ فأمر الله رسوله أن يبلغهم - تبكيتاً لهم وتهديدًا - أن العذاب الذى أوعِدُوا وهُددوا به كائن وحاصل ، لامحالة ، وأن وقوعه متيقن ، أما وقته وزمن نزوله بهم فلا أعلم متى يكون : أهو حالٌّ متوقع فى أية ساعة أم مؤجل قد ضرب الله له غاية وَوَقَّتَ له زمناً معيناً ؟ إن الله - سبحانه - قد استأثر بعلم ذلك .

---

(١) من الآية ١٨ من سورة غافر

(٢) من الآية ٢٣ والآية ٢٤ من سورة الرعد .

(٣) الآية ٥٨ من سورة يس .

هذا ، والأمد : الزمان مطلقاً بعيداً كان أو قريباً ، والمراد به هنا : البعيد ؛ بقرينة المقابلة بالقريب .

٢٦ ، ٢٧ - (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) :

أي : أنه - سبحانه - هو الذى يعلم كلَّ ماخفى واستتر ، لأنه خالق كل شىء : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »[1] ومن ذلك الغيب : العذاب والنكال الذى يقع عليهم ويلحق بهم ، وأنه - جل شأنه - لايطلع ولا يظهر على غيبه أحداً إلاَّ من يختاره ويصطفيه للنبوة والرسالة فيطلعه على بعض ما يريد - سبحانه - أن يظهره له ، لأن الرسل - عليهم السلام - مؤيدون بالمعجزات ومنها الإخبار عن بعض الغيبيات ، قال تعالى - حكاية عن عيسى - عليه السلام - « وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ »[2] وفى قوله تعالى : (إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ) إشارة إلى إبطال الكهانة والسحر والتنجيم لأنَّ أصحابها أبعد شىء عن ارتضاء الله وأدخل ما يكون فى سخطه وغضبه .

روى أن مسافر بن عوف قال لأمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضى الله عنه - لمَّا أراد لقاء الخوارج : يا أمير المؤمنين ، لا تَسِرْ فى هذه الساعة وَسِرْ فى ثلاث ساعات يمضين من النهار ، فقال له على - رضى الله عنه - : ولم ؟ قال : إن سرتَ فى هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد ، وإن سرت فى الساعة التى أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت فقال علىٌّ - رضى الله عنه - : ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا من بعده ، فمن صدقك فى هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله نِدًّا أو ضِدًّا ، اللَّهم لاطير إلاَّ طيرك ولا خير إلاَّ خيرك ، ثم قال للمتكلم : نكذبك ونخالفك ونسير فى الساعة التى تنهانا عنها ، ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس : إياكم وتعَلُّمَ النجوم إلاَّ ماتهتدون به فى ظلمات البر والبحر ، وإنما المنجم كالساحر ، والساحر

(١) الآية ١٤ من سورة الملك .

(٢) من الآية ٤٩ من سورة آل عمران .

كالكافر ، والكافر فى النار ، والله لئن بلغنى أنك تنظر فى النجوم وتعمل بها لأخلدنك فى الحبس ما بقيتَ وبقيتُ ، ولأحرمنك العطاء ما كان لى سلطان ، ثم سافر فى الساعة التى نهاه عنها ، ولقى القوم فقتلهم وهى وقعة (النهروان) الثابتة فى الصحيح لمسلم ، ثم قال : لو سرنا فى الساعة التى أمرنا بها وظفرنا وظهرنا لقال قائل : سار فى الساعة التى أمر بها المنجم ، ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا بعده ، فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان ثم قال : يا أيها الناس : توكلوا على الله وثقوا به ؛ فإنه يكفى عمن سواه .

(فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) ، أى : فإذا أراد الله إظهار شىء من غيبه على رسوله فإنه يحيط الرسول إحاطة تامة من جميع جوانبه بحرس وحفظة من الملائكة يحفظونه من تعرض الجن لما يريد إطلاعه عليه ؛ لئلا يسترقوه ويهمسوا به إلى الكهنة قبل أن يبلغه الرسول ، وذلك ليصل الوحى إلى الناس خالصاً من تخليط الجن وعبثهم .

٢٨ - (لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) :

أى : أخبرنا وأنبأنا محمداً ﷺ أن الرسل قبله كانوا على مثل حاله من التبليغ بالحق والصدق ، وأنه حفظ كما حفظوا من الجن ، أو ليعلم النَّاس أن الرسول والرسل قبله - عليهم السلام - قد أبلغوا رسالات ربهم كاملة لا زيادة فيها ولا نقصان ، أو ليعلم الله أن الرسل قد أبلغوا الرسالة وأدوا الأمانة كاملة لم يكتموا منها شيئاً ، أى : ليعلم ذلك مشاهداً وحاصلا وواقعاً كما علمه غيباً وأزلا فى علمه القديم .

(وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ) أى : علم - سبحانه - بما عند الرسل ظاهراً وباطناً من الأحكام والشرائع وغير ذلك لا يفوته منها شىء ولا ينسى منها حرفاً ؛ فهو المهيمن عليها والحافظ لها (وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) أى : ضبط كل شىء ضبطاً تاماً لايعتريه خلل ولا يناله نقص ، أحصاه - سبحانه - معدوداً محصوراً ، وذلك مثل القطر والمطر والرمال وورق الأشجار وزبد البحار وأنفاس خلقه وغير ذلك مما نعلمه ومما لانعلمه ، ومَنْ هذا شأنه كيف لايحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه ؟ إنَّه - سبحانه - المحصى المحيط العالم الحافظ لكل شىء لا تأخذه سنة ولا نوم .

سورة المزمل

هذه السورة الكريمة مكيَّة وآياتها عشرون آية

مناسبتها لما قبلها :

لما ختم الله - سبحانه - سورة الجن بذكر الرسل- عليهم الصلاة والسلام - فى قوله تعالى : (لِّيَعْلَمَ أن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ) افتتح هذه السورة بما يتعلق ويتصل بخاتمهم محمد ﷺ حيث بدأها بقوله : (يَـٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ) وقال الإمام الآلوسى : لا يخفى اتصال أولها (قُمِ اللَّيْلَ) . إلخ بقوله - تعالى - فى آخر تلك (سورة الجن) : (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ) وبقوله - سبحانه - : (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ) الآية .

بعض مقاصد هذه السورة :

١ - إن هذه السورة الكريمة تتصل برسول الله ﷺ فى بدء الرسالة ، وأنه أمر فيها بقيام الليل وترتيل القرآن فيه ؛ ليكون ذلك أعون له على تحمل أعباء الرسالة : (يَـٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ...) إلى قوله : (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) .

٢ - جاءت السورة تأمر الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالصبر على إيذاء قومه له ، وعدم التعرض لهم بأذى أو تعييب أو شتم ، وذلك قبل أن يؤذن له فى قتالهم ، وأن يتركهم لله وحده ينتقم له منهم فى الدنيا بالهزيمة والقتل كما حدث فى غزوة بدر ، وفى الآخرة بالأنكال والجحيم والطعام الذى يعترض فى حلوقهم فلا يخرج ولا ينزل : (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً) إلى قوله : (إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا) إلخ .

٣ - جاء ختام السورة ببيان فضل الله ورحمته على رسوله وعلى المؤمنين ، وذلك بالتخفيف عنهم فى التهجد وقيام الليل ؛ لأنه - سبحانه - علم أنهم لن يطيقوه لمرض بعضهم ، وحاجة آخرين إلى السعى فى الأرض ابتغاء الرزق أو للقتال فى سبيل الله ، ورفع عنهم وجوب ذلك وأمرهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً ، وذلك بفعل الطاعات ابتغاء وجهه - سبحانه - دون رياء أو سمعة ، ووعدهم بأنهم سيجدون عند الله خير الجزاء

وجزاء الخير على ما يقدمونه من بر وطاعة : (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾)

المفردات :

(الْمُزَّمِّلُ) : المتزمل الذى تزمل بثيابه ، أى : تلفف بها ، وقيل : غير ذلك .

(اللَّيْلَ) : هو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر .

(وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) (الترتيل) : التنضيد والتنسيق وحسن النظام ، ومنه ثغر رتل إذا كان حسن التنضيد .

التفسير

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ـ (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) :

ما جاء فى سبب النزول :

ورد فى حديث جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى - : « بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك

الذى جاءنى بحراء جالس على كرسىّ بين السماء والأرض ، فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملونى ، فأنزل الله : « يَآ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ » إلى قوله : « وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » فحمى الوحى وتتابع ، وقال المفسرون : وعلى أثرها نزلت (يَـآأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ) .

أى : يا أيها المتلفف بثيابك ، وكان رسول الله ﷺ نائماً بالليل متزملا فى قطيفة فناداه ربّه بذلك تأنيساً له وملاطفة على عادة العرب فى اشتقاق اسم للمخاطب من صفته وحالته التى هو عليها ، كقوله ﷺ - لعلىّ - كرم الله وجهه - حين غاضب زوجه فاطمة الزهراء - رضى الله عنها - فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب : « قم أبا تراب » وكذلك قوله - عليه الصلاة والسلام - لحذيفة : « قم يانومان » وكان نائماً ،ونداء الله له بذلك قصدا لرفع الحجاب وطيًّا لبساط العتاب وزيادة فى الإدلال والترأف تنشيطاً له ﷺ ليتلقى ما يكلف به من عمل يشق عليه بهمة عالية وعزيمة صادقة لا تعرف كلالا أو تعبا .

وقيل : يا أيها المزمل بالنبوة والملتزم بالرسالة . وقيل : المزمل بالقرآن .

(قُمِ اللَّيْلَ) أمره - سبحانه - بالقيام والتشمر فى الليل لإحيائه بالصلاة والعبادة وتلاوةالقرآن،وترك الهجوع إلى السجود والركوع ، وهجر المنام إلى مافيه نيل البغية وبلوغ المرام ، إنه - عزّ وجلّ - يعدُّه ويهيئه بقيام الليل وفيه ما فيه من المجاهدة والمصابرة ليؤهله إلى أداء الرسالة لقوم قوى مراسهم واشتد عنادهم .

(إِلَّا قَلِيلاً ۞ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ) أى : قم نصف الليل[1] أو أقل من النصف أو أزيد منه واختلف فى المراد من ذلك : فذهب أكثر المفسرين إلى أنه ﷺ خُيِّر بين قيام نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه ، وقال آخرون : هو مخيَّر بين قيام نصف الليل أو ربعه أو ثلاثة أرباعه[2] . والرأى الأول أجدر وأولى لوضوحه وبيانه ولاتّفاقه مع ما جاء فى آخر السورة : (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ) .

---

(١) هذا على أن كلمة (نصفه) بدل بعض من كل من الليل .

(٢) أى : قم نصف الليل أو انقص من هذا النصف قليلا يعنى انقص نصفه فيكون الربع ، أو زد على النصف قليلا ، يعنى نصفه ، فيكون المجموع ثلاثة أرباعه .

وفى قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ تنبيه لكل متزمل راقد ليله أن يقوم الليل ويذكر الله فيه ، لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة .

هذا . وهل كان قيام الليل فرضاً على رسولنا ﷺ وحده ؟ أو كان فرضاً عليه وعلى الأنبياء قبله ؟ أو كان فرضاً عليه وعلى أمته ؟ أقوال أرجحها أنه كان فرضاً عليه وعلى أمته ، وهو قول عائشة وابن عباس - رضى الله عنهما - فقد ورد فى صحيح مسلم عن زرارة بن أوفى : أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو فى سبيل الله ... وفى هذا الحديث : فقلت (أى : سعد بن هشام) لعائشة : أنبئينى عن قيام رسول الله ﷺ فقالت : ألست تقرأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ قلت : بلى ، فقالت : فإن الله - عزّ وجلّ - افترض قيام الليل فى أول هذه السورة ، فقام ﷺ وأصحابه حولا ، وأمسك خاتمتها اثنى عشر شهرًا فى السماء حتى أنزل الله - عز وجل - فى آخر هذه السورة التخفيف ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ فصار قيام الليل تطوعاً بعد الفريضة .

نقول : والظاهر أن النسخ والتخفيف كان فى حق الأمة وبقيت فريضة قيام الليل على رسول الله ﷺ بدليل قوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ وهذا رأى كثير من المفسرين والفقهاء .

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أى : اقرأ القرآن على تمهل وتؤدة وذلك بإشباع الحركات وتبيين الحروف بحيث يُمَكِّنُ السامع من عدها ، وذلك من قولهم : ثغر رتل إذا كان مفلجاً لم تتصل أسنانه بعضها ببعض ، وعن علىٍّ - كرم الله وجهه - أن رسول الله ﷺ سئل عن هذه الآية فقال : « بيِّنْهُ تبيينا ولا تنثره نثر الدقل[1] ولا تهذّه هذَّ الشِّعر ، وقفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة » .

---

(١) الدقل : أردأ التمر .

هذا ، ومراتب التلاوة الصحيحة للقرآن الكريم أربع :

١ - الترتيل : وهو القراءة بطمأنينة وإخراج كل حرف من مخرجه مع إعطائه حقه من جميع الصفات والمخارج ، ومع التدبر فى معانى القرآن الكريم والتأمل لما فيه من حكم ومواعظ .

٢ - التحقيق : وهو مثل الترتيل إلا أنه أكثر اطمئناناً منه ، وهو المأخوذ به فى مقام التعليم .

٣ - الحدر : وهو الإسراع فى القراءة مع مراعاة أحكام التجويد وضبطها .

٤ - التدوير : وهو مرتبة تتوسط الترتيل والحدر مع مراعاة الأحكام كذلك .

وقال علماء القراءات والتجويد : إن أفضل هذه المراتب هو الترتيل ؛ للأمر به فى قوله : (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) .

ولقراءة النبى ﷺ به ، فعن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : « كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها » وعنها - وقد سئلت عن قراءة النبى ﷺ فقالت : « لا كسردكم هذا ، لو أراد السامع أن يعدّ حروفه لعدّها » وعن أم سلمة - رضى الله عنها - أنها قالت : « كان يقطع القرآن آية آية » أى : يقف على آخر كل آية ليعلم أصحابه - رضى الله عنهم - أن الآية قد تمت .

(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝)

المفردات :

(قَوْلًا ثَقِيلاً) : يثقل حمله ، والمراد به قيام الليل ، أو القرآن .

(نَاشِئَةَ اللَّيْلِ) : العبادة فى الليل ، وقيل غير ذلك .

(أشد وَطْئاً) : أثقل وأغلظ وأشد على المصلى من صلاة النهار .

(وَأَقْوَمُ قِيلاً) : وأثبت قراءة وأبين مقالا .

(سَبْحاً) : تصرفاً وتقلباً فى شواغلك .

التفسير

٥ - (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً) :

أى : إنا سنوحى إليك بافتراض قيام الليل قولا ثقيلا يثقل حمله ، لأن مِنْ شأن الذى يقوم به أن يجهد بذلك وينوء بحمله ، لأن الليل وقت الإخلاد إلى الراحة والنوم ، فمن أمر بقيامه لم يتهيأ له ذلك إلا برياضة شديدة لنفسه وتذليل وقهرلها ، ومجاهدة للشيطان ، وقيل : إنا سنوحى إليك القرآن العظيم وهو ثقيل بثقل العمل بشرائعه وأحكامه ووعده ووعيده وحلاله وحرامه ، أو أنه ثقيل ، أى : مبارك فى الدنيا على صاحبه ويثقل ميزانه يوم القيامة ، وقيل : ثقيل تلقيه ؛ فقد روى عن عائشة - رضى الله عنها - « أن النبى ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرانها [1] فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسرَّى عنه » أى : الوحى ، وتلت قوله تعالى : (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً) .كما روى الشيخان ومالك وغيرهم أنها قالت : « لقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عَرَقاً » هذا ، وإن النص القرآنى الكريم ليتسع لذلك كله ولغيره .

٦ - (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً) :

أى : إن قيام ساعات الليل وإحياءها بالعبادة من ذكر وصلاة وتفكر وتدبر ، أو : إن العبادة التى تحدث وتنشأ فى الليل هى أشد وأثقل على القائم ليله من عبادة النهار ؛ لأن القائم فى الليل يجاهد نفسه ويهجر مهده ، ويتجافى عن المضجع جنبه ، وهى كذلك أصوب قولا وأحسن لفظاً ؛ لأن الليل فيه تهدأ الأصوات ، وتنقطع الحركات ، ويخلص القول ويفرغ

(١) الجران : مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره ، فاذا برك ومد عنقه على الأرض قيل : ألقى جرانه بالأرض .

القلب ، ولا يكون هناك مانع أو حائل دون تفهم القرآن وتدبره ، وفى هذه الآية الكريمة بيان لفضل صلاة الليل ، وأن الاستكثار منها وزيادة القراءة فيها يعظم الثواب ويجزل الأجر . وقيل : المراد بالناشئة هى النفس التى تنشأ من مضجعها إلى العبادة ، أى : تنهض ، وذلك دون ناشئة النهار .

واختلف العلماء فى وقت (ناشئة الليل) فقال ابن عمر وأنس بن مالك - رضى الله عنهما - : هى ما بين المغرب والعشاء تمسكاً بأن لفظ (نشأ) يعطى الابتداء ، وكان على بن الحسين - رضى الله عنهما - يصلى بين المغرب والعشاء ويقول : هذه ناشئة الليل ، وقيل : هى الليل كله ، وقيل : هى القيام بالليل بعد النوم ، وهذا مروى عن عائشة وابن عباس - رضى الله عنهما - وهذا يتفق مع ماروى عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله - عز وجل - يمهل حتى يمضى شطر الليل الأول ، ثم يأمر منادياً يقول : هل من داع يستجاب له ؟ هل من مستغفر يغفر له ؟ هل من سائل يعطى ؟ » فهذا الحديث بيّن الأوقات التى هى جديرة بالإحياء والإقامة ، وأيضاً فإنه يتناسب مع قوله تعالى : (هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً) لأن الصلاة بعد نوم فيها الكثير من أخذ النفس بالشدة والحزم ورياضتها على الأعمال الشاقة التى تكسب صاحبها ثواباً عظيماً وأجرا جزيلا ، فقد ورد فى الأثر : « أفضل العبادات أحمزها » أى أشقها .

٧ - (إِنَّ لَكَ فِى النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلًا) :

أى : إن لك فى النّهار سعة من الوقت تتصرف فيها فى مهامك وشواغلك ونومك وراحة بدنك ، فاجعل ليلك خالصاً لعبادة ربك ، وعليك بمناجاته التى تقتضى فراغ البال وانتفاء الشواغل ، أو : إن لك تصرفاً فى أمور معاشك وتقلباً فى حوائجك وما يعرض لك من أمر دنياك ، فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة الخالصة فى النهار فعليك بها فى الليل ، وقيل : إن فاتك فى الليل شىء من العبادات فلك فى النهار فراغ تقدر على تداركه فيه ، ويؤيد هذا المعنى ماروى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : « وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها ، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من

النهار ثنتي عشرة ركعة » هذا من حديث طويل رواه الإمام أحمد ، وقد أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث قتادة بنحوه .

وهذه الآية الكريمة تبين الداعى والدافع الخارجى إلى قيام الليل وهو اتساع النهار لأمر الدنيا فضلا على مافى قيام الليل من الدافع الذاتى وهو ما يناله القائم ليلا من رضا الله وثوابه .

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾)

المفـــردات :

(وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا) : وانقطع إلى ربك بعبادته ، وجرد نفسك عما سواه .

(وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) : جانبهم ودارهم ولا تكافئهم على إيذائهم لك .

التفســير

٨ - (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا) :

أى : ودم واثبت على ذكر ربك ليلا ونهارا ، أى : ادعه بأسمائه الحسنى ليكون لك مع صلاة الليل العاقبة المحمودة والدرجة العالية الرفيعة ، وقيل : اذكره على أى وجه كان من تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن وغير ذلك من ألوان الطاعات وصنوف العبادات ، وفسر الأمر فى قوله : (وَاذْكُرْ) بالدوام والاستمرار ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام حتى فى منامه لم ينس ربه - عز وجل - حتى يؤمر بذكره . (وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا) : هذا أمر منه - سبحانه - لرسوله أن ينقطع لله ويخلص له العبادة ويفرده بها ، ويراقبه مراقبة

تستغرق قلبه وتسيطر على باطنه ، كما أمره - عز وجل - أن يعبده ظاهرا ويذكره بلسانه فى قوله : (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ) ليكون الظاهر والباطن مشغولا بالله وحده .

هذا ، واتفق أئمة الإسلام وعلماؤه على مشروعية طلب ذكر الله ، كما اتفقوا على أن كلمة : (لا إله إلا الله) هى أفضل ما قاله الرسول والنبيون من قبله - ﷺ ولكن ما المراد من ذكر الله ؟ هل يشمل ويضم كل العبادات ؟ أو هو نوع معين منها ؟ ثم ما مقداره ؟ وما هى أفضل الأوقات التى يطلب فيها وتكون أرجى فى الإجابة ؟ وهل هو مطلوب على سبيل الندب أو على سبيل الحتم والوجوب ؟ وما الحالة التى ينبغى أن يكون عليها الذاكر عند ذكر ربه ؟ أمور اختلفوا فيها ولكل وجهة .

والذى يتضح لنا أن الذكر هو عمل من أعمال اللسان ، وأن لكل جارحة عبادتها الخاصة بها ، وذلك عملا بقول الرسول ﷺ فى حديث : « أوصانى ربى بتسع ... » إلخ الذى جاء فيه : « وأن يكون نطقى ذكرا ، وصمتى فكرا ، ونظرى عبرا » ، وأيضاً فإن إطلاق الذكر على كل ما نطق به اللسان من العبادات فيه ضرب من التجوز ؛ إذ قد عطف الأمر بالتسبيح (وهو من عمل اللسان أيضاً) على الأمر بالذكر فى قوله تعالى : (يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) والعطف - كما يقولون - يقتضى المغايرة ، نسأل الله حسن التوفيق إلى ما يحبه الله ويرضاه

٩ - (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً) :

أى : هو - سبحانه - رب المكان الذى تشرق فيه الشمس وتغرب ؛ فهو رب الأرض جميعاً ومالكها ، ومدبر أمرها وأمر ما فيها ، لا معبود بحق إلا هو ، وما دام - سبحانه - مختصاً بالربوبية والألوهية فقد وجب على كل عاقل أن يتخذه وكيلاً ؛ فيسلم نفسه إليه ، ويعتمد ويتوكل عليه ، ويفوض كل أمره إليه ، فهو - جل شأنه - نعم الوكيل ونعم المولى والنصير ، قال بعضهم : من رضى بالله - تعالى - وكيلا وجد إلى كل الخير سبيلا .

١٠ - (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً) :

أى : احبس نفسك على ما يصيبك من أذى قومك وسفاهتهم التى يرمونك بها من صفات التعييب والتنقيص كقولهم : ساحر ، شاعر ، كاهن ، مجنون إلى غير ذلك مما

كانوا ينسبونه إليه استهزاء به وسخرية منه ﷺ ، واجعل نفسك فى جانب وهم فى جانب ، واصبر على مايبدر منهم ؛ فالهجر الجميل : هو أن يجانبهم بقلبه وهواه ويخالفهم مع حسن المخالقة والمداراة والإغضاء وترك المكافأة .

(وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾)

المفـردات :

(وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ) : خل بينى وبينهم ، وارض بى لعقابهم .

(أُولِي النَّعْمَةِ) : أصحاب التنعم وغضارة العيش .

(أنكَالًا) : جمع نكل ، وهو القيد الثقيل أو الشديد .

(وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ) : وطعاماً يعترض وينشب فى الحلوق .

(تَرْجُفُ الْأَرْضُ) : تضطرب وتتزلزل .

(كَثِيباً) : رملا مجتمعاً .

(مَهِيلاً) : رخواً ليناً .

التفسير

١ - (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً) :

أى : خل بينى وبين هؤلاء المكذبين المفترين أرباب التنعم وغضارة العيش وكثرة الأولاد ، وارض بى لعقابهم وإنزال النكال بهم ؛ فإن لدى ما يفرغ بالك ويجلى همك ،

والمراد من المكذبين أولى النعمة : هم صناديد قريش وزعماؤها (وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً) أى : ولا تضق ذرعاً بهم واتركهم زماناً قليلاً وهو مدة حياتهم فى الدنيا ، أو المدة الباقية لهم إلى يوم بدر ، وبعدها فسيهلكهم الله ويكفيك شرهم .

وفى قوله تعالى :(وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ) إدخال مزيد اطمئنان على قلب الرسول الكريم بأنه - سبحانه - آخذ هؤلاء لامحالة بشديد عقابه جزاء تكذيبهم ، وإلاَّ فهل يستطيع الرسول ﷺ أو غيره مهما علا سلطانه واشتد جبروته وقوى طغيانه أن يحول بين الله وأحد من خلقه ؟ !

١٢ ، ١٣ - (إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً ۞ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً) :

أى : إن عندنا ما ننتقم به منهم ، إن لدينا قيودًا ثقيلة لا يستطيعون منها فكاكاً ولا معها تحركاً ، كما اعتدنا لهم نارًا شديدة الاشتعال والاتقاد يلقون فيها وتسعر بهم ، وهيأنا لهم طعاماً من الضريع والغسلين والزقوم يأخذ بالحلق يدخل ولا يخرج ، كما أن لهم نوعاً آخر من العذاب شديد الإيلام لايعرف كنهه ولا قدره إلاَّ الله - عزَّ وجلَّ - .

١٤ - (يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً) :

أى : ننكل بالكافرين ونعذبهم يوم تضطرب الأرض والجبال وتتزلزل حتى تصير الجبال رملا مجتمعاً رخوًا لينا بعد أن كانت صخرًا صلباً وحجارة صماء .

هدد الله - سبحانه - المشركين وخوفهم بهذا العذاب الأليم وذلك المآل المخزى يوم القيامة إذا استمروا على شركهم وعنادهم .

(إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾)

المفـــردات :

(وَبِيلاً) : ثقيلاً غليظاً رديء العاقبة .

(مُنفَطِرٌ بِهِ) : متشقق ومتصدع بشدة ذلك اليوم .

التفسـير

١٥ ، ١٦ - (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً • فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً) :

أى : إنا بعثنا إليكم أيها المكذبون من أهل مكة رسولا يخبرنا يوم القيامة بما شاهده وعاينه من كفركم وعنادكم وعصيانكم ؛ حتى لا تكون لكم حجة ، وستواجهون بما قدمتم من جرائم الأعمال وقبيح الفعال ، وتكذيبكم له ﷺ وفعلُنا هذا هو سنة قد أجريناها على الأمم قبلكم « سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً »[1] فقد أرسلنا إليكم محمدًا ﷺ كما أرسلنا إلى فرعون رسولا وهو موسى - عليه السلام - (فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ) كما عصيتم رسولكم وكذبتموه (فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً) أى : انتقمنا منه انتقاماً ذريعاً وعذبناه عذابا ثقيلا غليظاً ، وسيكون عقاب المكذبين منكم أشد وأقسى

---

(١) الآية ٦٢ من سورة الأحزاب .

من عقاب ذلك الفرعون وقومه : لأن رسولكم يشهد عليكم عند ربكم ، ولو آمنتم لكانت شهادته لكم .

وقد جاء فى هذا الوضع ذكر قصة موسى وفرعون دون سائر الرسل والأمم ؛ لأن أهل مكة استهزأوا برسول الله ﷺ واستخفوا به لأنه ولد فيهم وتربى بينهم ، كما أن فرعون ازدرى موسى لأنه رباه وولد - عليه السلام - فيما بينهم ، وهو قوله : « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ »[1] .

١٧ - (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً) : هذا توبيخ وتقريع ، أى : إذا بدا لكم وجال بخاطركم أنكم لن تؤخذوا بأعمالكم السيئة وفعالكم القبيحة وتكذيبكم رسول الله كما أخذ فرعون أخذًا شديدًا وعذبه عذاباً غليظاً ، فكيف تَقُونَ أنفسكم وتحفظونها من هول يوم القيامة وما أعد لكم فيه من القيود والأغلال إن دمتم على ما أنتم فيه حتى زهقت أرواحكم وأنتم كافرون ؟ ! وما ينبغى لكم يا أولى الأحلام والنُّهَى أن تكونوا كذلك وقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، أو : كيف لكم بالتقوى ، وأنَّى لكم بها يوم القيامة إن كفرتم فى الدنيا (يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً) هذا مثل فى الشدة ، يقال فى اليوم الشديد : يوم يشيب نواصى الأطفال ، والأصل أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت واشتدت على الإنسان أسرع فيه الشيب ، قال أبو الطيب :

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبى ويهرم

وقيل : إن الكلام على الحقيقة استنادًا إلى ماجاء فى حديث الشفاعة ، وفيه أن الله - سبحانه - يأمر آدم - عليه السلام - (أن يخرج بعث النار من كل ألف : تسعمائة وتسعة وتسعين ، فيخرجون ويساقون إلى النار سوقاً مُقَرَّنين زُرْقاً) قال ابن مسعود : « فإذا خرج بعث النار شاب كل وليد » .

---

(١) الآية ١٨ من سورة الشعراء .

١٨ - ﴿ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ :

المراد من السماء : كل مافوقك من السموات والكواكب والنجوم وغيرها مما أظلك وعلاك ، والمعنى : السماء مع عظمها وإحكامها تتصدع وتتشقق وتتداعى من هول ذلك اليوم ، فما ظنك بغيرها من الخلائق ؟ أو : أن السماء مثقلة به إثقالا يؤدى إلى انفطارها وتصدعها لعظمته عليها وخشيتها من وقوعه ، كقوله تعالى : « ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [1] » ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ أى : كان وعد ذلك اليوم واقعاً لا محالة ؛ لأن حكمة الله وعلمه يقتضيان إيقاعه وحصوله ، أو أن وعد الله واقع لامحالة لأنه - سبحانه - منزه عن الكذب « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً [2] » .

١٩ - ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ :

أى : إن هذه الآيات التى سبقت فى هذه السورة وفيهامافيهامن القوارع والزواجر هى تذكرة ومواعظ اشتملت على أنواع الهداية والرشاد ، فمن شاء وأراد اتعظ بها واتخذ طريقاً إلى الله بالتقوى والخشية والتقرب والتوسل إليه - سبحانه - بالاشتغال بالطاعات والاحتراز والبعد من المعاصى والسيئات .

(١) من الآية ١٨٧ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية ١٢٢ من سورة النساء .

* (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۙ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾)

المفــردات :

(تَقُومُ) : تصلى .

(أَدْنَىٰ) : أقل .

(عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ) : علم أن لن تطيقوا ضبط وقت قيام الليل .

(فَتَابَ عَلَيْكُمْ) : فخفف عليكم ورفع التبعة عنكم فى ترك قيامه المقدر .

(فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) أى : فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل ، وقيل : الكلام على حقيقته من طلب قراءة القرآن .

(يَضْرِبُونَ فى الْأَرْضِ) : يسافرون فيها للتجارة ونحوها .

(وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً) : وذلك بإنفاق ما سوى المفروض من المال فى سبيل الخير عن طيب نَفس .

(هُوَ خَيْرًا) : هو خيرًا مما خلفتم وما أبقيتموه لأنفسكم فى الدنيا .

التفسير

٢٠ - (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

فى أول السورة الكريمة جاء الأمر الإلٰهى لرسول الله بقيام قدر من اللَّيل ، وخضع الرسول ، لأمر ربه ، ولبى نداء السماء ، ومعه جماعة من أصحابه اقتدوا به ، ثم خفف الله عنهم فى آخرها بقوله تعالى : (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ) وأمرهم بالصلاة والزكاة والصدقة والاستغفار .

ومعنى الآية : إن ربك الذى رباك على موائد كرمه يعلم أنك يا محمد تقوم من الليل أقل من ثلثيه حيناً وتقوم نصفه حيناً وتقوم ثلثه حيناً آخر ، وتقوم معك طائفة من أصحابك تأدبوا بآدابك وحَذَوْا حَذْوَك ونسجوا على منوالك واهتدوا بهديك ومنهم من كان لا يدرى كم صلَّى فى الليل وكم بقى منه ، ولا يدرى متى نصف اللَّيل من ثلثه فكان يقوم الليل كله احتياطيًّا مخافة أن يخطىء حتى انتفخت أقدامهم ، وامتقعت ألوانهم سنة أو أكثر فرحمهم الله وخفف عنهم فقال : (وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) أى : يعلم مقادير اللَّيل والنهار على حقائقها وأنتم تعلمون بالتَّحَرِّى والاجتهاد الذى يقع فيه الخطأ ، ولا يقدر على تقدير الليل والنهار وضبط ساعاتهما كما هى إلا الله وحده (عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ) علم الله أنَّ الشأن لن تقدروا على تقدير الأوقات ولن تستطيعوا ضبط الساعات ، ولايتأَتَّى لكم حسابها إلا أن

تأخذوا بالأكثر والأوسع للاحتياط وذلك شاق عليكم (فَتَابَ عَلَيْكُمْ) أى : فرجع بكم إلى التخفيف بالترخيص فى ترك القيام المُقَدّر ورفع التبعة عنكم فى تركه كما ترفع التبعة عن التائب ، وعاد إليكم بالعفو ، وهذا يدل على أنّه كان فيهم من ترك بعض ما أُمِر به ، وقيل : فتاب عليكم من فرض القيام إن عجزتم ، وأصل التوبة الرجوع ، فالمعنى رجع بكم من تثقيل إلى تخفيف ، ومن عسر إلى يسر ، وكانوا أمروا بحفظ الأوقات على سبيل التحرى فخفف عنهم ذلك التحرى .

(فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ) أى : فَصَلُّوا مايتيسر لكم من صلاة الليل ، وعبّر عن الصلاة بالقراءة كما عبر عنها ببعض أركانها فقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا »[1] . أى : أقيموا الصلاة ، وقيل : الكلام على حقيقته من طلب قراءة القرآن بينها قال السدى : مائة آية ، وقال سعيد : خمسون .

ومن ذهب إلى الأول قال : إن الله فرض قيام مقدار معين من الليل فى قوله تعالى : (قُمِ اللَّيْلَ) الآية إلى قوله : (أَوْ زِدْ عَلَيْهِ) ثم نسخ بقيام مقدار ما منه فى قوله سبحانه : (فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) فالأمر فى الموضعين للوجوب إلا أن الواجب أولا كان معيناً محدوداً ، والثانى كان بعضاً مطلقاً ثم نسخ وجوب القيام على الأمة مطلقاً بالصلوات الخمس وغيرها .

ومن ذهب إلى الثانى قال : إن الله رخص لهم فى ترك القيام وأمر بقراءة شىء من القرآن ليلاً فكأنه قيل : فتاب عليكم ورخص فى التّرك فاقرءوا ما تيسر من القرآن إن شق عليكم القيام فإن هذا لايشق وتنالون بهذه القراءة ثواب القيام ، وصرح جمع أن قوله تعالى : (فَاقْرَءُوا) على هذا أمر ندب بخلافه على الأول .

قال العلامة الآلوسى : واعلم أنهم اختلفوا فى أمر التهجّد :

١ - فعن مقاتل وابن كيسان أنه كان مفروضاً بمكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، ثم نسخ بها إلا ما تطوعوا به ، ورواه البخارى ومسلم فى حديث جابر ، وقد روى ذلك

(١) سورة الحج من الآية : ٧٧

أيضاً في حديث سعد بن هشام عندما سأل السيدة عائشة عن قيام رسول الله وقد سبق ذلك في أول السورة .

٢ - وقيل : كان نفلا بدليل التخيير في المقدار ، وبدليل قوله تعالى :
« وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ »[1].

٣ - وعن ابن عباس : سقط قيام الليل عن أصحاب رسول الله ﷺ وصار تطوعاً وبقي ذلك فرضاً على رسول الله .

بقي هنا بحث : وهو أن الإمام أبا حنيفة - رضي الله عنه - استدل بقوله تعالى : (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) على أن الفرض - في الصلاة مطلق قراءة ما تيسر من القرآن لا الفاتحة بخصوصها - وهو ظاهر على القول بأنه عبّر في الآية عن الصلاة بركنها وهو القراءة . كما عبر عنها بالسجود والقيام والركوع في مواضع - وقدّر ما تيسر من القرآن بآية .

وخص الشافعي ومالك ما تيسر من القرآن بالفاتحة واحتجوا على وجوب قراءتها في الصلاة بحجج كثيرة : فعن أبي هريرة عنه - عليه الصلاة والسلام - قال : « لاتجزىء صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب » ا هـ آلوسي مع التلخيص والتصرف (عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ) استئناف مبين لحكمة أخرى غير ما تقدم من عسرة ضبط الأوقات التي يطلب منكم قيام الليل فيها : أي علم أن الشأن سيكون منكم مرضى يشق عليهم الليل (وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ) .

أي : وآخرون يسافرون في الأرض وينتقلون بين أجزائها للتجارة والعمل يطلبون رزق الله وخيره . وقيام الليل يشق عليهم (وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أي : وآخرون يجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر دعوته . وفي قرن المسافرين لابتغاء فضل الله الطالبين للتجارة والعمل بالمجاهدين في سبيل الله إشارة إلى أنهم كمثلهم في الأجر وهكذا

---

(١) من الآية ٧٩ من سورة الإسراء .

الإسلام جعل العمل عبادة بل جعله من أعظم أنواع العبادات وأفضلها لأنه قرن العمل بالجهاد فى سبيل الله .

وهكذا الإسلام سعى لإقامة حياة سعيدة قوامها العمل الجاد النافع للناس ، والجهاد لنشر دين الله ، وحاول الفلاسفة والمصلحون من البشر إقامتها فعجزوا وأقامها محمد ﷺ وأصحابه الذين نشروا دعوته وأقاموا منهج السماء فى الأرض .

أخرج سعيد بن منصور والبيهقى فى شعب الإيمان وغيرهما أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : ما من حال يأتينى عليه الموت - بعد الجهاد فى سبيل الله - أحبّ إلىّ من أن يأتينى وأنا بين شعبتى جبل ألتمس من فضل الله - ثم تلا هذه الآية :(وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ) ... إلخ .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من جالب يجلب طعاماً إلى بلد من بلدان المسلمين فيبيعه لسعر وقته إلّا كانت منزلته عند الله ثم قرأ رسول الله ﷺ : (وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ)» .

قال ابن كثير : وهذه الآية - وهى قوله تعالى - : (وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ) بل السورة كلها مكية ، ولم يكن القتال شُرِع بعد ، فهى من أكبر دلائل النبوة ؛ لأنها من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلية .

وإذا كان الأمر كما ذكر وتعددت مقتضيات الترخيص (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ) أى : فاقرءوا ما تيسر من القرآن من غير تحمل مشقة ، وقال ابن كثير : قوموا بما تيسر عليكم منه ، وهو مذهب الحسن البصرى كان يرى حقّاً على حملة القرآن أن يقوموا ولو بشىء قليل منه فى الليل ، ولو بقراءة خمس آيات ، وقال القرطبى : أى : فَصَلُّوا ما أمكن فأوجب الله من صلاة الليل ما تيسر ، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس على ما تقدم (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) أى : واظبوا على أداء الصلاة المفروضة (وَآتُوا الزَّكَاةَ) أى : وأعطوا الزكاة الواجبة عليكم لمستحقيها ، وقيل : المراد من الزكاة : زكاة الفطر ، وقيل : صدقة

التطوع (وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً) يجوز أن يراد بهذه الآية الإنفاق فى سائر الصدقات، أو أن يُراد أداء الزكاة على أحسن وجه من إخراج أطيب المال وأكثره نفعاً للفقراء، ومراعاة النية وابتغاء وجه الله والصرف إلى المستحق، أو أن يراد كل شىء يفعل من الخير مما يتعلق بالنفس والمال، فالله يجازى عليه أحسن الجزاء وأوفره، وعن عمر بن الخطاب: هو النفقة فى سبيل الله (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا):

قال ابن كثير: أى: جميع ما تقدمونه بين أيديكم وأنتم أحياء فهو لكم حاصل ثوابه، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم فى الدنيا ومما تركتم وخلفتم.

قال رسول الله ﷺ: «أيكم مالُهُ أحبُّ إليه من مال وارثه؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلّا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: اعلموا ما تقولون، قالوا: ما نعلم إلّا ذلك يا رسول الله، قال: إنما مال أحدكم ما قدّم ومال وارثه ما أخر» رواه البخارى.

(وَأَعْظَمَ أَجْرًا): وأجزل ثوابًا - قال القرطبى: قال أبو هريرة: هو الجنة، وقيل: لإعطائه بالحسنة عشرًا أو أكثر.

(وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ) أى: اطلبوا منه المغفرة فى كافة أحوالكم، فإن الإنسان قلما يخلو مما يعد تفريطًا بالنسبة إليه، وعَدّ من ذلك الصوفية رؤية العابد، عبادته، قيل: ولهذه الإشارة أَمَر بالاستغفار بعد الأوامر السابقة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقراض الحسن.

(إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ): وهو سبحانه يغفر ذنب من استغفره، ويرحمه - عز وجل - وفى حذف المعمول دلالة على العموم، نسأل الله عظيم مغفرته ورحمته، قال القرطبى: (غَفُورٌ) لِمَا كان قَبْلَ التوبة (رَحِيمٌ): لكم بعدها: قاله سعيد بن جبير.

سورة المدثر

سورة المدثر مكية ، وآياتها ست وخمسون آية

مناسبتها لما قبلها :

سورة المدثر متفقة مع سورة المزمل التى قبلها فى الافتتاح بنداء النبى ﷺ فى كل منهما ، كما بدئت سورة المزمل بالأمر بقيام الليل وهو عبادة خاصة ، وبُدِئت سورة المدثر بالأمر بالإنذار وفيه من التكميل ما فيه .

أول ما نزل من القرآن :

قال الآلوسى : أخرج أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم عن يحيى بن أبى كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال : (يَـٰٓأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) . قلت : يقولون : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) . قال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك وقلتُ له مثلَ ما قُلتَ فقال جابر : لا أُحدثك إلّا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال : جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنُودِيت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئًا ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئًا ، ونظرت خلفى فلم أر شيئًا ، فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسىّ بين السماء والأرض فجئثت[1] منه رعبًا ، فرجعت فقلت : دثرونى ، فنزلت : (يَـٰٓأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) وظاهر ذلك الخبر أن سورة (يَـٰٓأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) نزلت قبل سورة (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) .

والمَرْوِى فى الصحيحين وغيرهما عن عائشة أنَّ قوله تعالى : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) أول ما نزل من القرآن ، وهو الذى ذهب إليه أكثر الأئمة ، حتى قال بعضهم : هو الصحيح ، ولصحة الخبرين احتاجوا للجواب للتوفيق بينهما فذكر (صاحب الإتقان) : خمسة أجوبة منها :

١ ــ أن السؤال فى حديث جابر كان عن نزول سورة كاملة ، فَتبَيَّن أن سورة المدثر نزلت بتمامها قبل تمام سورة اقرأ ، فإن أول ما نزل منها صدرها : من أول السورة إلى قوله تعالى : (عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) .

(١) فجئثت ــ أى : ذعرت وخفت .

٢ - أن مراد جابر بالأولية أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحى لا أولية مطلقة - انتهى ملخصًا .

من مقاصد السورة :

تبدأ السورة الكريمة بنداء النبى ﷺ ودعوته لإنذار قومه وتعظيم ربه وتخلقه بكريم الخصال ، ثم بحديث عن القيامة وأهوالها ، ثم بأمر من الله لنبيه بترك الجاحد لنعم الله عليه المكذب بالآيات ؛ لأن الله وحده سيكفى الرسول أمره وسيتولى عقابه ، وتصور باقى السورة الكريمة أحوال هذا المكذب وهو يفكر فيما يقول فى القرآن تصويرًا دقيقًا فتقول : (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) .

يا سبحان الله ؟ بعد كل هذا التفكير العميق عاد ذلك الجاحد يردد ما قاله المكذبون من قبله !! وتذكر الآيات عقابه سقر وأوصاف سقر ، ثم بينت السورة الحكمة فى جعل خزنة النار من الملائكة والسر فى كونهم على هذه العِدّة المذكورة فى القرآن ، ووضحت الآيات أن كل نفس مرهونة بعملها من خير أو شر ، وأن أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون عن المجرمين قائلين لهم تبكيتًا : (مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ) فذكروا لهم ما فعلوه من ذنوب فى الدنيا عوقبوا عليها يوم القيامة ، وجاء فى الآيات تشبيه الكفار لإعراضهم عن الحق بهذا التشبيه المهين (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ) .

وختمت السورة بالحديث عن القرآن ووصفه بأنه تذكرة لمن شاء أن يتذكر ، وبالثناء على الله بأنه أهل التقوى وأهل المغفرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(الْمُدَّثِّرُ) : لابس الدثار ، وهو ما فوق القميص ، وهو رسول الله ﷺ .

(قُمْ) : أى : قم من مضجعك ، أو قم قيام عزم وتصميم .

(فَأَنذِرْ) أى : فحذر الناس وخوفهم من عذاب الله .

(وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) : وخُص ربك بالتكبير والتعظيم ، أو بقول : الله أكبر .

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) : كناية عن التخلق بالأخلاق الحسنة ، أو تقصير الثياب لتسلم من النجاسة ومن الخيلاء .

(وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) : اترك المآثم الموجبة للعذاب كالشرك .

(وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ) : ولا تعط مستكثرًا - أى : رائيًا ماتعطيه كثيرًا - أو طالبًا الكثير .

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) : ولوجه ربك وابتغاء مرضاته فتخلق بالصبر .

(فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ) : فإذا نُفِخ فى الصُّور للبعث والنُّشور – والنَّاقور – فاعُول من النقر ، بمعنى التصويت – وأصله : القرع الذى هو سببه ، ومنه منقار الطائر لأنه يقرع به .

التفسير

١ - (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ) :

أى : المتلفف بثوبه المتغشى به ، واللفظ - على ما قيل - دائر على معنى السَّتْر على سبيل الشمول .

نودى ﷺ باسم مشتق من صفته التى كان عليها وقت نزول الوحى عليه ؛ ملاطفة له ، وبعثًا للأنس فى نفسه ، وطلب تَدَثُّره - عليه الصلاة والسلام - لما اعتراه من خوف وأصابه من رعب حين رأى الملك الذى جاءه بحراء ، فرجع وقال لأهل بيته : (دثرونى) فنزل (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ) .

وقيل : المراد بالمدثر : المتدثر بالنبوة والكمالات النفسية ، على معنى : المتحلى بها ، والمتزين بآثارها ، وقيل : الظاهر أن يُرَاد بالمدثر وكذا بالمزَّمل ، الكناية عن المستريح الخالى البال البعيد عن الشواغل ؛ لأنه فى أول البعثة ، فكأنه قيل له - عليه الصلاة والسلام - : قد مضى زمن الراحة وجاءتك أعباء الدعوة .

٢ - (قُمْ فَأَنذِرْ) :

(قُمْ) أى : قم من مضجعك ، أو : قم قيام عزم وتصميم وشمر عن ساعد الجد ، فقد جاء الأمر الإلٰهى الآن باصطفائك رسولًا ، فقد جاء الأوان لتباشر مهمتك وتنشر رسالتك وتقود البشرية إلى بر السلامة ، وتلزمها منهج الله ، ولذا جاء قوله تعالى : (فَأَنذِرْ) أى : فحذِّر الناس وخوِّفهم من عذاب الله وعقابه إن لم يؤمنوا ، ولم يقل هنا : (وبشِّر) لأنه كان فى ابتداء الرسالة ، والإنذار هو الغالب إذ ذاك ، أو هو من باب الاكتفاء ؛ لأن الإنذار يلزمه التبشير .

٣ - (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) :

أى : واخصص ربك ومالكك ومتولى أمرك بالتكبير : وهو وصفه تعالى بالكبرياء ، والعظمة اعتقادًا وقولًا .

ويروى أنه لَمَّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : الله أكبر فكبَّرت خديجة ، وأيقنت أنه الوحى ، وذلك لأن الشيطان لا يأمر بذلك ، وبعد الأمر السابق فى قوله : (قُمْ فَأَنْذِرْ) ذكرت جملة (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) مقدمة على سائر الجمل والأوامر التى تأتى بعدها إشارة إلى مزيد الاهتمام بأمر التكبير ، وإيماء - على ما قيل - إلى أن المقصود الأول من الأمر بالقيام أن يكبر ربه ويعظمه وينزهه عن الشرك ؛ فإن أول ما يجب على العبد معرفة الله تعالى ، ثم تنزيهه عمَّا لا يليق به ، وقد يقال : لعل ذكر هذه الجملة أولا لتشجيعه - عليه الصلاة والسلام - على الإنذار وعدم مبالاته بما سوى الله - عز وجل - حيث تضمنت الإشارة إلى أن نواصى الخلائق بيده تعالى ، وكل ما سواه مقهور تحت كبريائه تعالى وعظمته ، فلا ينبغى أن يرهب إلا منه ، ولا يرغب إلَّا فيه ، فكأنه قيل : قم فأنذر ، واخصص ربَّك بالتكبير والتَّعظيم ، ولا يصدنك شىء عن الإنذار ، قيل : ويجوز أن يحمل قوله تعالى : (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) على التكبير فى الصلاة - ذكر ذلك القرطبى والآلوسى والزمخشرى .

٤ - (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) :

(١) أمر الله رسوله ﷺ أن تكون ثيابه طاهرة من النجاسات ؛ لأن طهارة الثوب شرط فى صحة الصلاة ، وهى الأولى فى غير الصلاة ، وقبيح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثًا .

(٢) وقيل : هو أمر بتقصيرها ومخالفة العرب فى تطويلهم الثياب وجرهم الذيول علامة الكبر والخيلاء ، فوق ما تتعرض له من الإصابة بالنجاسة .

(٣) وقيل : هو أمر بتطهير النفس ممَّا يستقذر من الأفعال ويستهجن من العادات ، يقال : فلان طاهر الثياب : إذا وصفوه بالنقاء من العيوب ودنس الأخلاق ، وفلان دنس الثياب للغادر .

٥ - (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) :

أى : والعذاب فاترك ، والمعنى : دم على ترك ما يوصل إلى العذاب من عبادة الأوثان والتخلق بالأخلاق الرديئة ، فقوله سبحانه : (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) كلام جامع فى مكارم

الأخلاق ، فكأنه قيل : اهجر الجفاء والسّفه وسوء الخُلُق وكل شىء يقبح : كالأصنام وعبادة الأوثان ؛ فإنها تنتهى بصاحبها إلى العذاب .

٦- (وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ) :

(١) قال ابن عباس : المعنى : لا تُعْط العطية تلتمس أكثر منها ، وهذا خاص بالنبى ﷺ لأنه مأمور بأجمل الأخلاق وأشرف الآداب .

(٢) وقال الحسن البصرى : ولا تمنن بعملك على ربك تستكثره ، واختاره ابن جرير .

(٣) وعن مجاهد : ولا تضعف أن تستكثر من الخير ؛ وقال : « (لا تمنن) فى كلام العرب : لا تضعف » .

(٤) وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها تأخذ عليها عرضًا من الدنيا .

(٥) وقيل : ولا تعط مستكثرًا ، أى : رائيًا لما يعطيه كثيرًا . فهذه أقوال ، والأظهر القول الأول .

٧- (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) :

أى : ولوجه الله : مربيك ومالكك فاقصد جهته وجنابه وابتغاء مرضاته وطلب ثوابه ، فتجمل بالصبر على وجه العموم ؛ ليفيد كل مصبور عليه ومصبور عنه ، أو يراد : الصبر على أذى المشركين لأنه أحد ما يتناوله العام ، لا لأنه وحده هو المراد .

وفضائل الصبر لا تحصى ، ويكفى فى ذلك قوله تعالى : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ »[1] ، وقوله ﷺ : قال الله تعالى : « إذا وجهتُ إلى عبدٍ من عبيدى مصيبةً فى بدنِه أو مالِه أو ولدِه ثم استقبلَ ذلك بصبرٍ جميل استحييتُ منه يومَ القيامةِ أن أنصبَ له ميزانًا ، أو أنشرَ له ديوانًا » .

(١) من الآية ١٠ من سورة الزمر .

٨ ، ٩ ، ١٠ - (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ) :

الفاء فى قوله تعالى : (فَإِذَا نُقِرَ) للسببية ، كأنه قيل : اصبر على أذاهم ؛ فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أذاهم ، وتلقى فيه عاقبة صبرك . والفاء فى قوله تعالى: (فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ) للجزاء ، والعامل فى (إِذَا) ما دل عليه قوله تعالى : (فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ) أى : فإذا نقر فى الناقور صعب الأمر وعسر على الكافرين و (ذلك) إشارة إلى وقت النقر المفهوم من قوله تعالى : (فَإِذَا نُقِرَ) والمراد به يوم القيامة ، والمعنى :

فإذا نفخ فى الصور فذلك الوقت يومئذ شديد على الكافرين غير سهل ولا ميسر ، فلا يتسنى لهم أن يخلصوا مما هم فيه وما يلاقونه من مناقشة الحساب وغيره من الأهوال التى يجدونها فى ذلك الوقت العصيب الرهيب .

وفائدة قوله تعالى : (غَيْرُ يَسِيرٍ) بعد قوله تعالى : (عَسِيرٌ) - وهو مفهم له - تأكيد لعسره على الكافرين فهو يمنع أن يكون عسيرا عليهم من وجه دون وجه كما يشعر بتيسيره على المؤمنين ، كأنه قيل : عسير على الكافرين غير يسير عليهم ، كما هو يسير على أضدادهم المؤمنين ففيه جمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم وبشارة للمؤمنين وتسليتهم ، ومع هذا لا يخلو قلب المؤمن من الخوف ، أخرج ابن سعد والحاكم عن بَهْز بن حكيم قال : أمَّنا زرارة بن أوفى فقرأ المدثر ، فلما بلغ قوله تعالى : (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ) خرَّ ميِّتا . فكنت فيمن حمله ، وأخرج ابن أبى شيبة والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : لمَّا نزلت (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ) قال رسول الله ﷺ : كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحَنَى جبهته يستمع متى يُؤمر ؟

قالوا : كيف نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وعلى الله توكلنا - ذكر ذلك الآلوسى وغيره . واختلف فى أن المراد بذلك الوقت يوم النفخة الأولى ، أو يوم النفخة الثانية ، ورجح أنه يوم الثانية لأنه الذى يختص عسره بالكافرين ، وأما وقت النفخة الأولى فحكمه الذى هو (الصعق) يعم البر والفاجر ، وهو على المشهور مختص بمن كان حيًّا عند وقوع النفخة .

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾)

المفـــردات :

(ذَرْنِي) : اتركني ودعني .

(مَّمْدُودًا) : مبسوطًا كثيرًا دائمًا غير منقطع .

(وَبَنِينَ شُهُودًا) : وبنين حضورًا معه لا يفارقونه للتكسب لغناهم عنه .

(وَمَهَّدتُّ لَهُ) : وبسطت له النعمة والرياسة والجاه ، والتمهيد عند العرب : التوطئة والتهيئة ومنه مهد الصبي .

(كَلَّا) : كلمة زجر وردع له عن طمعه وقطع لرجائه الخائب ، أي : لست أزيده مع كفره بالنعم .

(لِآيَاتِنَا) أي : آيات الله المنعم ، وهي دلائل توحيده ، أو القرآن .

(عَنِيدًا) : جاحدًا لها مكذبًا بها مُعرضًا عنها .

(سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا) : سأكلفه بصعود عقبة شاقة المصعد ، وهو مثل لمـا يلقى من العذاب الشاق الصعب الذى لا يطاق .

(إِنَّهُ فَكَّرَ) : إنه فكر ماذا يقول فى شأن القرآن والرسول من الاختلاق .

(وَقَدَّرَ) : ورتّب وهيَّأ فى نفسه قولا كاذبًا فى القرآن والنبى ، والعرب تقول : قدرت الشىء : إذا هيأته .

(فَقُتِلَ) : لُعِن وكُذِّب وقُهر وغُلب .

(كَيْفَ قَدَّرَ) : كيف هيأ هذا الطعن ، وذلك تعجيب من تقديره وإصابته الغرض الذى يرجوه قومه .

(ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) : ثم استحق الهلاك ؛ كيف أعد فى نفسه هذا الطعن .

(ثُمَّ عَبَسَ) : ثم قطّب وجهه وقبض بين عينيه .

(وَبَسَرَ) : اشتد فى العبوس وكلوح الوجه .

(سِحْرٌ يُؤْثَرُ) : سحر يُرْوى ويُنقل عن السحرة .

(سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) : سأدخله جهنم ليحترق فيها . وسميت جهنم بسقر ، من : سَقَرَتْهُ الشمس : إذا أذابته ولوَّحته وأحرقت جلدة وجهه .

(وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ) : مبالغة فى وصفها ، أىْ : أىّ شىء أعلمك ما جهنم ؟!

(لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ) : لا تبقى شيئًا يلقى فيها إلَّا أهلكته ، وإذا هلك لم تذره هالكًا حتى يعاد .

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) أى : يتولى أمر النار ، ويلى تعذيب أهلها تسعة عشر ملكًا أو صَفًّا ، أو صنفًا .

التفسير

١١ - (ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) :

قال ابن عباس وغيره : نزلت هذه الآية ومابعدها فى الوليد بن المغيرة ، بل قيل : إن هذا القول متفق عليه ، والمعنى : يقول الله تعالى متوعدًا هذا الخبيث الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا فجحد بها وبدَّلها كفرًا وقابلها بالإنكار لها والافتراء عليها .

(وَحِيدًا) أى : دعنى وحدى مع من خلقته فأنا أكفيك أمره وأُغنيك فى الانتقام منه عن كل منتقم . وفى الأسلوب ما فيه من التهديد والوعيد ، حسبك أن الذى سيتولى جزاءه وعقابه هو الله . أو المعنى : اتركنى مع من خلقته وحدى لم يشركنى فى خلقه أحد فأنا أهلكه ولا أحتاج إلى ناصر ومساعد فى إهلاكه ، أو ذرنى ومن خلقته وحيدًا فريدًا لا مال ولا ولد ، ولقد كان الوليد يلقب فى قومه بالوحيد ، فتهكم الله به وبلقبه وصرفه عن الغرض الذى كانوا يقصدونه من مدحه والثناء عليه إلى جهة ذمه وعيبه ، وهو أنه خلق وحيدًا لا مال له ولا ولد ، فآتاه الله ذلك ، فكفر بنعمة الله وأشرك به واستهزأ بدينه !! أو : وحيدًا فى الخبث والشر ، أو وحيدًا عن أبيه لأنه كان لم يعرف نسبه للمغيرة حقيقة .

١٢ - (وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا) :

أى : ووليته وأعطيته مالا مبسوطًا كثيرًا ، أو ممدودًا بالنماء ، قيل : كان له الضرع والزرع والتجارة ، وعن ابن عباس : هو ما كان له بين مكة والطائف من النعم والجنان ، والعبيد ، وقيل : كان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره صيفًا ولا شتاء .

١٣ - (وَبَنِينَ شُهُودًا) :

أى : ومنحته ورزقته بنين شهودًا ، أى : حضورًا معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم لا يفارقونه بالسفر فى عمل أو تجارة ، لوفور نعمهم وكثرة خدمهم ، أو حضورا فى الأندية والمحافل لوجاهتهم واعتبارهم ، أو تسمع شهادتهم فيما يُتَحَاكم فيه ، واختلف فى عددهم : فعن مجاهد

أنهم عشرة ، وعن السدى والضحاك : كانوا اثنى عشر ، سبعة ولدوا بمكة ، وخمسة ولدوا بالطائف ، وقيل غير ذلك ، وكلهم رجال ، أسلم منهم ثلاثة :

١- الوليد بن الوليد . ٢- وخالد . ٣-وهشام .

١٤- (وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا) :

أى : وبسطت له الرياسة والجاه العريض حتى أقام ببلدته مطمئنًا مترفهًا يُرْجع إلى رأيه ، فأتممت عليه نعمة المال والجاه ، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا ، وأصل التمهيد فى التسوية والتهيئة ، وتُجُوِّزَ به عن بسطة المال والجاه ، وكان لكثرة غناه ونضارة حاله الرائقة فى الأعين يلقب ريحانة قريش ، وكذلك كانوا يلقبونه بالوحيد ، بمعنى : المتفرد باستحقاق الرياسة .

١٥- (ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ) :

أى : ثم يطمع أن أزيده على ما أعطيته وأديته له من المال والولد والجاه مع عدم الشكر ، وهو استبعاد لنيله ما يريد ، واستنكار لشدة طمعه وحرصه ، إما لأنه فى غنى تام لا مزيد على ما أوتى سعة وكثرة ، أو لأنه مناف لما هو عليه من كثرة النعم ومعاندة المنعم ، واستعمال (ثم) للاستبعاد كثير ، وقيل : معنى (ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ) أى : يطمع أن أترك ذلك فى عقبه .

١٦- (كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا) :

(كَلَّآ) : ردع وزجر له عن طمعه وقطع لرجائه ، أى : لست أزيده (إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا) : جملة مستأنفة استئنافًا بيانيًّا لتعليل ماسبق ، كأنه قيل : لِمَ زُجِر عن طلب المزيد وما وجه عدم لياقته ؟ فقيل : إنه كان معاندًا لآيات المنعم كافرًا بها ، وآيات الله هى دلائل توحيده ، أو الآيات القرآنية حيث قال فيها ما قال ، والمعاندة تمنع من الزيادة ، بل هى تستوجب الحرمان ، قال مقاتل : ما زال الوليد بعد نزول هذه الآية فى نقص من ماله وولده حتى هلك ، وعن مجاهد : (عَنِيدًا) : مجانبًا للحق معاندًا له معرضًا عنه ، والعرب تقول : عَنَد الرجل : إذا عَتَا وجاوز قدره .

١٧ - (سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا) :

الإرهاق فى كلام العرب : أن يُحْمل الإنسان على الشىء . والمعنى : سأُكلفه فى النار بما لا يقدر عليه ، وأحمله على صعود عقبة شاقة المصعد ، أو : هو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذى لا يطاق ، وروى أن النبى ﷺ قال : يكلف أن يصعد عقبة فى النار كلما وضع عليها يده ذابت ، وإذا رفعها عادت ، وإذا وضع رجله ذابت ، فإذا رفعها عادت .

وذكر القرطبى أن معنى الآية - كما قال ابن عباس : سأُكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيه .

١٨ - (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ)

تعليل للوعيد السابق واستحقاقه له ، كأن الله عاجله بالفقر بعد الغنى والذل بعد العز فى الدنيا لعناده ، ويعاقبه فى الآخرة أشد العذاب وأعظمه لبلوغه بالعناد غايته وأقصاه فى تفكيره ، وتسميته القرآن سحرًا ، والمعنى : أن الوليد فكر وزوَّر فى نفسه وأعد وهيأ ما يقوله من الطعن فى القرآن والرسول ، فاستحق بذلك العذاب وذلك أنه لما نزل قوله تعالى : (حٰمٓ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) إلى قوله تعالى : (إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) على النبى ﷺ سمعه الوليد يقرؤها فقال : والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا هو من كلام الجن وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يُعْلى عليه ، وما يقول هذا بشر ، فقالت قريش : صبأ الوليد لَتَصْبُوَنَّ قريش كلها ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه فمضى إليه حزيناً فقال له : مالى أراك حزيناً ؟ فقال له : ومالى لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد وتدخل على ابن أبى كبشة - يعنى بذلك رسول الله - وابن أبى قحافة - يقصد أبا بكر - لتنال من فضل طعامهما ، فغضب الوليد وتكبر وقال : أنا أحتاج إلى كِسْر محمد وصاحبه ؟ ! فأنتم تعرفون قدر مالى ، واللات والعُزَّى مالى حاجة إلى ذلك ، وإنما أنتم تزعمون أن محمدًا مجنون فهل رأيتموه قط يَخْنُق ، قالوا : لا والله ، قال : وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه نطق بشعر قط ؟ قالوا : لا والله ،

قال : فتزعمون أنه كذاب .فهل جربتم عليه كذباً قط ؟ قالوا : لا والله ، قال : فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهن قط ، وقد رأينا للكهنة أسجاعاً وتَخَالُجاً[1] فهل رأيتموه كذلك ؟ قالوا : لا والله .

وكان النبي يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه ، فقالت قريش للوليد : من هو ؟ ففكر فى نفسه ثم نظر ثم عبس ، فقال : ما هو إلا ساحر . أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، وما الذى يقوله إلا سحر يأثره عن مسيلمة وعن أهل بابل ، فارتج النادى فرحاً وتفرقوا مُعْجَبِين بقوله مُتَعَجِّبين منه ، فذلك قول الله : (إِنَّهُ فَكَّرَ) أى : فى أمر محمد والقرآن . (وَقَدَّرَ) فى نفسه ماذا يمكنه أن يقول فيهما .

١٩ - (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) :

تعجيب من تقديره وإصابته المحزَّ ورميه الغرض الذى كانت تتمناه وتتوقعه قريش وتتطلبه منه ، أو ثناء عليه تهكماً ، أو حكاية لما كرروه على سبيل الدعاء عليه عند سماع كلمته الحمقاء ، فالعرب تقول : قتله الله ما أشجعه ، وأخزاه الله ما أشعره : يريدون أنه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يحسد ، ويدعو عليه حاسده بذلك . ومعنى (قُتِلَ) أى : لُعِن ، وكان بعض أهل التأويل يقولون معناها : فقُهِر وغُلِب ، وقال الزهرى : عُذِّب ، وهو من باب الدعاء .

٢٠ - (ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) :

ثم استحق العذاب واللعن والهلاك كيف أعد فى نفسه هذا الطعن على القرآن ؟ أو على أى حال قدر ، والتكرير للمبالغة كما هو عادة من أعجب غاية الإعجاب ، والعطف بثم للدلالة على تفاوت الرتبة وأن الثانية أبلغ من الأولى ، فكأنه قيل : قتل بنوع ما من القتل ، لا : بل قتل بأشده وأشده ، والإطراء فى الإعجاب بتقدير الوليد بن المغيرة يدل على غاية التهكم به وبمن فرح بخلاصة تفكيره .

---

(١) تخالجا : تجاذبا يميناً وشمالا .

٢١ - (ثُمَّ نَظَرَ) :

أى : ثم نظر فى وجوه قومه ، أو فيما يقدح به فى القرآن ويعيبه عليه ويذمه به ، وقيل : نظر بمؤخر عينه تكبرًا وتغيظاً ، أو : فكر فى أمر القرآن وبأى شىءٍ يرده ويدفعه .

٢٢ - (ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ) :

(ثُمَّ عَبَسَ) أى : ثم قطب فى وجوه الناس لمّا لم يجد فى القرآن مَطْعَناً وضاقت به السبل وأعيته الحيل ، ولم يدر ماذا يقول فى القرآن . وقيل : نظر فى وجوه القوم ثم قطب وجهه ، وقيل : نظر إلى رسول الله ثم قطب فى وجهه - عليه الصَّلاة والسَّلام - (وَبَسَرَ) أى : أظهر العبوس قبل أوانه أو فى غير وقته ، من الْبَسْر : وهو الاستعجال بالشىء ، وفسره بعضهم بأشد العبوس ، من بسر ؛ إذا قبض ما بين عينيه كراهة للشىء واسود وجهه منه ، ويستعمل البسر بمعنى العبوس .

٢٣ - (ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ) :

أى : ثم رجع معرضاً وانْصَرَفَ عن الحق مدبرًا وتولى مستكبرًا عن الانقياد للقرآن ، والاتباع لمحمد لما خطرت بباله الكلمة الشنعاء : قوله : (إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ) وهم أن يرمى بها - وصف القرآن أشكاله التى تشكل بها حتى استنبط ما استنبط استهزاء به ، وقيل : قدر ما يقوله ، ثم نظر فيه ، ثم عبس لما ضاقت عليه الحيل ، ولم يدر ما يقول ، ثم أدبر عن الحق وأعرض عنه وتكبر وتعاظم أن يعترف به وقال ما قال فيه .

٢٤ - (فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ) :

السحر : الخديعة ، وقيل : السحر : إظهار الباطل فى صورة الحق ، والمعنى : ماهذا الذى أتى به محمد ﷺ إلا سحر يأثره عن غيره ويتعلمه منه ، ويروى وينقل عن الأولين مثل سحرة بابل وغيرهم ، والفاء فى قوله تعالى : (فَقَالَ) للدلالة على أن هذه الكلمة الكاذبة كما خطرت ببال ذلك المكذب بها من غير تلعثم ومُكْث وانتظار ؛ فهى للتعقيب من غير مهلة .

٢٥ - (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) :

أى : ما هذا إلا كلام المخلوقين تعلمه محمد منهم ، ثم ادعى أنه من عند الله ، وخدع به القلوب كما تُخْدع بالسحر ، وهذه الجملة كالتأكيد للجملة الأُولى ؛ لأن المقصود منهما نفى كونه من كلام الله تعالى ، ثم الذى يظهر من تتبع أحوال الوليد أنه قال ما قال عنادًا وحمية جاهلية لا جهلا بحقيقة الحال .

٢٦ - (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) :

أى : سأُدخله جهنم كى يصلى حرها ويحترق بنارها ، وقال ابن كثير : سأغمره فيها من جميع جهاته ، وإنما سميت جهنم سقر من : سقرته الشمس : إذا أذابته ولوحته وأحرقت جلدَ وجهه .

٢٧ - (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ) :

أىْ : أىّ شىء أعلمك ما سقر ؟ ! وهذا الأُسلوب مبالغة فى وصفها ، وتهويل وتعظيم بشأْنها ، ثم وصفها وفسر حالها فقال :

٢٨ - (لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ) :

أى : لا تترك لهم عظماً ولا لحما ولا دماً إلا أحرقته ، وكرر اللفظ تأْكيدًا ، وقيل : لا تُبْقِى منهم شيئاً إلا أهلكته ، ثم يعادون خلقاً جديدًا فلا تلبث أن تعاود إحراقهم هكذا أبدًا .

٢٩ - (لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ) :

أى : مُغَيِّرة للبشرات مُسَوِّدة للجلود ومحرقة لها ، وفى بعض الآثار أنها تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سوادًا من الليل ، واعترض بأَن لا يصح وصفاً بما ذكر من تسويدها لظاهر الجلود مع قوله سبحانه : (لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ) الصريح فى الإحراق . وأُجيب بأنها فى أول الملاقاة تُسَوِّد الجلد ثم تحرقه وتهلكه ، وقد يجاب بأَن المراد ذكر أوصافها الفظيعة من

غير ترق من شديد إلى أشد ، وكونها « لواحة » وصف من أوصافها ، ولعله باعتبار أول الملاقاة .

وقال الحسن وابن كيسان والأصم : (لواحة) بتاء مبالغة من (لَاحَ) إذا ظَهَرَ ، والبَشَرُ بمعنى الناس ، أى : تظهر للناس لعظمها وهو لها كما قال تعالى : « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ »[1] .

٣٠ – (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) :

أى : يلى أمرها ويتسلط على أهلها بالعذاب تسعة عشر ملكاً ، ألا ترى العرب الفصحاء كيف فهموا منه ذلك ؟ فقد روى عن ابن عباس أنها لما نزلت (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع أن ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدُّهْم (أى : العدد) والشجعان ، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل فيهم ؟ ، فقال أبو الأشد بن أسيد كَلَدَة الجُمَحى : أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفونى أنتم اثنين ، فأنزل الله (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً) أى : وما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون ، والجمهور على أن المراد بهم النقباء ، فمعنى كونهم عليها : أنهم يتولون أمرها وتعذيب أهلها وإليهم رئاسة زبانيتها ، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها كما قال تعالى : (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) وقد ثبت فى الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : قال : رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » .

وذهب بعضهم إلى أن التمييز المحذوف : صفاً ، أو صنفاً أى : عليها تسعة عشر صَفًّا أو صنفاً .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة النازعات .

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧))

المفـــردات :

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً) أى : وما جعلناهم رجالا من جنسكم يطاقون .

(فِتْنَةً) : اختبارًا وامتحاناً ، أو سبب فتنة وضلال .

(لِيَسْتَيْقِنَ) : ليستبين ، أو ليوقن .

(وَلَا يَرْتَابَ) : ولا يشك .

(وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) أى : شك ونفاق .

(مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا) : ما الذى أراده الله بهذا العدد المُسْتَغْرب استغراب المثل .

(كَذَٰلِكَ) أى : مثل إضلال المنكر لهذا العدد كأبى جهل وأحزابه ، وهدى مُصَدِّقه .

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) الجنود : جمع جند اشتهر فى العسكر ، اعتباراً بالغلظة ، من الجند ، أى : الأرض الغليظة التى فيها حجارة ، ويقال لكل جمع : جندٌ أى : وما يعلم جموع خلقه التى من جملتها الملائكة إلا هو -عز وجل- .

(وَمَا هِيَ) أى : وما سقر - كما قال مجاهد .

(إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) : إلا تذكرة للبشر وتخويف لهم

(كَلَّا) : ردع لمن يُنْذَرُ بسقر ولم يخف ، وقيل : زجر عن قول أبى جهل وأصحابه .

(وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ) : قسم بالليل إذْ ولى وذهب .

(وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ) : قسم بالصبح إذا أضاء وانكشف وأشرق

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ) أى : إن سقر لإحدى الدواهى العظيمة .

(نَذِيراً لِّلْبَشَرِ) : تخويفاً للبشر .

(أَن يَتَقَدَّمَ) أى : إلى الجنة أو الخير بالإيمان .

(أَوْ يَتَأَخَّرَ) : إلى النَّار أو الشر بالكفر .

التفسير

٣١ - (وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ) :

(وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً) أى : وما جعلنا خزنة النَّار إلا ملائكة لأَنهم خلاف جنس المعذَّبين من الإنس والجن فلا يأْخذهم ما يأخذ المُجَانِس من الرأفة والرحمة ولا يستروحون إليهم ، ولأَنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له فتؤمن هوادتهم ، ولأَنهم أشد خلق الله بأْساً وأقواهم بطشاً فلا يقدر أهل النار عليهم ولا يستطيعون مغالبتهم .

(وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا) أى : وما جعلنا عدتهم تسعة عشر إلا اختباراً منا للذين كفروا .

(لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) أى : ليحصل اليقين للذين أُوتوا الكتاب من النصارى واليهود بأَن ما يقوله القرآن على لسان محمد عن خزنة جهنم وعددهم إنما هو حق من الله تعالى ؛ حيث وافق ذلك مافى كتبهم .

(وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً) أى : ويزداد إيمانهم بما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أن عدد الخزنة كذلك ، أو بانضمام إيمانهم بذلك إلى إيمانهم بسائر ما أنزل .

(وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ) : هذا الكلام تأْكيد لما قبله من الاستيقان وازدياد الإيمان ، ونفى لما قد يعترى المستيقن من شبهة وشك ، أى : ولا يشك فى ذلك الذين أعطوا الكتاب والمؤمنون المصدقون من أصحاب محمد فى أن عدَّةَ خزنة جهنم تسعة عشر ، فإذا جمع لهم إثبات اليقين ونفى الشك كان آكد وأبلغ لوصفهم بسكون النفس ، ولأَن فيه تعريضاً بمن عداهم كأَنه قال : ولتخالف حالهم حال الشاكين والمرتابين من أهل النفاق والكفر .

(وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ) أى : وليقول الذين فى صدورهم شك ونفاق من منافقى المدينة الذين سينجمون ويظهرون بعد الهجرة والكافرون بمكة المصرون على التكذيب ، ويجوز أن يراد بالمرض : الشك والارتياب ، لأَن أهل مكة كان أكثرهم شاكين وبعضهم قاطعين بالكذب .

(مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاً) أى : ما الذى أراده الله بهذا العدد (تِسْعَةَ عَشَرَ) المستغرب استغراب المثل .

قال الزمخشرى : أى : أى شىء أراد الله بهذا العدد العجيب ؟ وأى حكمة قصدها فى أن جعل الملائكة تسعة عشر لاعشرين ؟ ومرادهم إنكار هذا الأَمر من أصله وأنه ليس من عند الله وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص . اهـ : بتصرف .

وعنوا بالإشارة (بهذا) التحقير ، وغرضهم نفى أن يكون ذلك من عند الله على أبلغ وجه ، وليس مرادهم الاستفهام حقيقة عن الحكمة .

(كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ) ذلك : إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهداية ، أى : مثل ذلك المذكور من الإضلال والهداية يضل الله ويخزى الكافر لصرف اختياره حسب السماع إلى جانب الضلال عند مشاهدته لآيات الله الناطقة بالهدى ، ويهدى ويرشد المؤمن لصرف اختياره الحسن عند مشاهدة تلك الآيات .

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) أى : وما يعلم جنود ربك وما عليه كل جند من العدد ، والحكمة فى كون بعضها على عقد كامل وبعضها على عقد ناقص ، لايعلم ذلك إلا هو سبحانه ، ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك ، كما لا تعرف الحكمة فى أعداد السموات والأرض وأيام السنة والشهور والبروج وعدد الصلوات والركعات ، أو ما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين ، ولكن فى هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها ، وهو يعلمها .

روى الترمذى أن النبى ﷺ قال : « أَطَّت السماء[1] وحُقّ لها أن تَئِطَّ ؛ ما فيها موضع أربع أصابع إلا ومَلَك واضع جبهته لله ساجدًا » ـ ذكره القرطبى ـ .

قال الآلوسى : وهذه الآية وأمثالها من الآيات والأخبار تشجع على القول باحتمال أن يكون فى الأجرام الأخرى جنود من جنود الله لا يعلم حقائقها وأحوالها إلا هو ـ عزّ وجل ـ ودائرة ملك الله ـ جلّ جلاله ـ أعظم من أن يحيط بها نطاق الحصر ، أو يصل إلى مركزها طائر الفكر ، وفى كل يوم تظهر لنا الكشوف عجائب وغرائب وبدائع من عجيب خلق الله وصنعه ، وصدق الله : (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) .

واختلف فى المخصص لهذا العدد ـ أعنى تسعة عشر ـ والذى مال إليه أكثر العلماء أن ذلك مما لا يعلم حكمته على التحقيق إلا الله ، وهو كالمتشابه يؤمن العبد به ويفوض علمه

---

(١) الأطيط : صوت الأقتاب ـ وأطيط الإبل : أصواتها وحنينها .

إلى الله (وَمَاهِيَ إلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) أى : وما سقر إلا تذكرة وعظة للبشر وتخويف للخلق ، وقيل : وما هذه العدة (إلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ) ليتذكروا بها ويعلموا كمال قدرة الله وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار .

٣٢ - (كَلاَّ وَالْقَمَرِ) :

(كَلاَّ) : ردع وزجر لمن أنذر بسقر ولم يخف . (وَالْقَمَرِ) وما بعده مقسم به .

٣٣ ، ٣٤ - (وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ) :

(وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ) : قسم بالليل إذ ولى وذهب .

(وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ) : قسم بالصبح إذا أضاء وانكشف ، وفى الحديث « أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر » أى : صلوا صلاة الصبح مسفرين ، ويقال : طولوها إلى الإسفار ، أى : الإنارة وظهور الضوء .

٣٥ ، ٣٦ - (إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ) :

أى : إن سقر لإحدى الدواهى الكبر إنذارًا وتخويفاً للبشر ، على معنى أن البلايا الكبيرة كثيرة وسقر واحدة منها ، قال الآلوسى :فيكون فى ذلك إشارة إلى أن بلاءهم غير محصور فيها ، بل تحل بهم بلايا غير متناهية ، وقال الحسن : والله ما أنذر الخلائق بشىء أدهى منها ! !

٣٧ - (لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) :

أى : نذيرًا لمن شاء منكم أن يتقدم إلى الخير والطاعة ، أو يتأخر إلى الشر والمعصية قال الحسن : هذا وعيد وتهديد ، وإن خُرِّج مُخْرَج الخبر كقوله تعالى : « فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ »[1] وكان ابن عباس يقول : هذا تهديد وإعلام : أن من يتقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد ﷺ جوزى بثواب لا ينقطع ، ومن تأخر عن الطاعة وكذب محمدًا - ﷺ - عوقب عقاباً لا ينقطع .

(١) من الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(رَهِينَةٌ) : مرهونة عند الله بكسبها مأخوذة بعملها .

(يَتَسَآءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ) : يسألون عن الكافرين ، أو يسأل بعضهم بعضاً عنهم .

(مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ) : ما أدخلكم فى النار ؟

(نَخُوضُ مَعَ الْخَآئِضِينَ) : نشرع فى الباطل مع الشارعين فيه لا نبالى به ، والخوض فى الأصل : ابتداء الدخول فى الماء والمرور فيه ، ويستعمل مجازاً فى الشروع فى الباطل .

(الْيَقِينُ) : الموت ومقدماته .

(فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ) : فما لأهل مكة عن العظة بالقرآن منصرفين .

(حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ) : حمر وحشية شديدة النفار .

(مِن قَسْوَرَةٍ) : من مُطَارِدِها من أسد أو صائد ، وقيل : القسورة : الأسد ، فَعْوَلة من القسر والغلبة .

(صُحُفاً مُّنَشَّرَةً) : قراطيس واضحة مكشوفة .

(كَلَّا) : ردع لهم عما أرادوه ، وزجر لهم عن اقتراح الآيات ، أو بمعنى : حقّاً ، أى حقّاً إن القرآن عظة .

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى) أى : الله - سبحانه - حقيق بأن يُتَّقى عذابه ويؤمَنَ به ويُطَاعَ .

(وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) : حقيق بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه .

التفسير

٣٨ ، ٣٩ - (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ) :

رهينة مصدر بمعنى الرهن ، كالشتيمة بمعنى الشتم . والمعنى : كل نفس محاسبة على كسبها مأْخوذة بما قدمت من خير أو شر ، رهن بعملها إمَّا خلَّصها وإما أوبقها وأهلكها . (إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ) : وهم المسلمون المخلصون كما قال الحسن وغيره ، ورواه ابن المنذر عن ابن عباس فإنهم فاكُّون رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم كما يفكُّ الراهن رهنه بأداء الدَّيْن ، ونقل عن على بن أبى طالب وابن عمر أنهم أطفال المسلمين . وعن ابن عباس أنهم الملائكة ، قال العلامة الآلوسى : الظاهر سياقاً وسباقاً أن يراد بهم طائفة من البشر المكلفين .

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ - (فِى جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ) :

(فِى جَنَّاتٍ) : الجملة استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ مما قبله ، كأنه قيل : ما بالهم ؟ فقيل : هم فى جنات وبساتين لا يكتنه كنهها ولا يدرك وصفها . (يَتَسَاءَلُونَ

عَنِ الْمُجْرِمِينَ) أى : يسألون عن الكافرين ، أو سأل بعضهم بعضاً عن المجرمين قائلين : (مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ) أىْ : أىّ شىء أدخلكم النّار ؟ ! والسؤال سؤال توبيخ وتحسير ، وقيل : إن المؤمنين يسألون الملائكة عن هؤلاء المجرمين ، فتسأل الملائكة المشركين فيقولون لهم : (مَاسَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ) .

٤٣ ، ٤٤ - (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ • وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ) :

أى : قال المجرمون من أهل النار مجيبين للسائلين مبينين لهم أسباب دخولهم النار بقولهم : لم نك من المصلين كما كان يصلى المسلمون المخلصون .

(وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ) أى : ولم نك نعطى المسكين مايجب إعطاؤه ، ولم نك نتصدق عليه ونطعمه ، وهو من بنى جنسنا وإخوتنا فى الإنسانية - كما يفعل المسلمون - وهكذا لم يقوموا بالواجب عليهم نحو الله بعبادته بالصلاة ، ولا بالواجب الاجتماعى نحو إخوتهم بالزكاة كما يفعل المسلمون الصالحون ، وهدموا بذلك ركنين من أركان الإسلام وهما الصلاة : حق الله ، والزكاة : حق العباد .

٤٥ - (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ) :

ومن أخلاق المجرمين الذين استحقوا بها دخول النار ماحكاه الله عنهم فى قوله تعالى : (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ) أى : وكنا ننغمس فى الباطل والزور ونندفع فيه ، ونخالط أهله دون اكتراث أو مبالاة .

والمراد بالخوض هنا : الشروع فى الباطل ، وأريد بالباطل مالا خير فيه وما لا ينبغى من القول والفعل ، وعُدّ من ذلك حكاية مايجرى بين الزوجين فى الخلوة مثلا ، وحكاية أحوال الفَسَقَة على وجه الالتذاذ بها ، ونقل الحروب التى جرت بين الصحابة لغير غرض شرعى ، بل لمجرد أن يتوصل بها إلى طعن وتنقيص ، والتكلم بالكلمة الفاحشة يُضحك بها الرجل جلساءه ، إلى غير ذلك مما لا يُحصى ، وكان ذكر قوله تعالى : (مَعَ الْخَائِضِينَ) إشارة إلى عدم اكتراثهم بالباطل وترك مبالاتهم به ، فكأنهم قالوا : كنا لا نبالى بباطل

٤٦، ٤٧ – (وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ) :

(وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ): هـذه هى الصفة الرابعة من صفات المجرمين التى بها استحقوا دخول النار ، وهى تكذيبهم بيوم الدين وهو يوم البعث والحساب والجزاء ، وتأخير جنايتهم هذه فى الذكر مع كونها أعظم من الكل لتفخيمها كأنهم قالوا : وكنا بعد ذلك كله مكذبين بيوم القيامة ولبيان كون تكذيبهم به مقارنًا لسائر جناياتهم المعدودة إلى آخر عمرهم جاء قوله تعالى : (حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ) أى : حتى نزل بنا الموت ومقدماته ، كما ذهب إليه جُلُّ المفسرين ، ومنه قوله تعالى : « وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ »[1] ، وقول رسول الله ﷺ : (أما هو) يعنى عثمان بن مظعون (فقد جاءه اليقين من ربه) ، وقال ابن عطية : اليقين عندى : صحة ما كانوا يكذبون به من الرجوع إلى الله تعالى والدار الآخرة ، والظاهر أن مجموع ما ذكر من الصفات هو سبب لدخول مجموعهم النار ، فلا يقدح فى ذلك أن بعض أهل النار من لم يكن قد وجب عليه إطعام مسكين كفقراء الكفرة المعدمين .

٤٨ – (فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) :

أى : لو شفع لهم الشافعون جميعًا من الملائكة والنبيين وغيرهم لم تنفعهم شفاعتهم ، والكلام على الفرض ؛ لأن الشفاعة لمن ارتضاه الله ، وأمَّا من لَقِىَ الله كافرًا يوم القيامة فإن له النار لا محالة خالدًا فيها ، لأنه مسخوط ومغضوب عليه ، والمعنى المقصود : لا شفاعة لهم .

٤٩ – (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ) :

أى : فما لهؤلاء الكفرة عمَّا تدعوهم إليه من الدين وتذكرهم به من القرآن وغيره من المواعظ معرضين ومنصرفين – قال مقاتل : الإعراض عن القرآن من وجهين :

١ – الجحود والإنكار .

٢ – والوجه الآخر ترك العمل به .

---

(١) الآية ٩٩ آخر سورة الحجر .

٥٠، ٥١ - (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ • فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ) :

المعنى : تشبيه هؤلاء الكفار فى فرارهم من الرسول وإعراضهم عن القرآن واستماع ما فيه من المواعظ وشِرَادهم عنه ونفورهم منه بحُمُر وحشية جَدَّت فى نِفارها ممن طاردها من أسد ، أو رَوَّعها من قانص ، أو أفزَعَها من صائد أو حبالة ، وقال ابن الأعرابى وثعلب : القسورة : أول الليل ، أى : كأنهم حمر وحشية فرت من ظلمة الليل ، وجمهور اللغويين على أن القسورة الأسد - فَعْوَلَةٌ : من القسر ، وهو القهر والغلبة ، وروى ذلك عن ابن عباس كما روى عنه غير ذلك ، وفى تشبيههم بالحمر مَذَمَّة ظاهرة وتهجين بيِّن لحالهم وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل .

٥٢ - (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً) :

الآية معطوفة على مقدر يقتضيه المقام - كأنه قيل : إنهم لا يكتفون بتلك التذكرة ولا يرضون بها ، بل يريد كل واحد منهم أن يُؤْتَى قراطيس مفتوحة واضحة مكشوفة تنشر وتقرأ ، أو كتبًا كتبت فى السماء ونزلت بها الملائكة عليهم ساعة كتبت منشرة ومبسوطة على أيديها غضة رطبة لم تُطْو بعد .

وذلك أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا : يا محمد ائتنا بكتب من رب العالمين مكتوب فيها : إنى قد أرسلت لكم محمدًا - نظيره « وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ »[1] ، وقال مجاهد : أرادوا أن ينزل على كل واحد منهم كتاب من السماء فيه من رب العالمين : إلى فلان بن فلان ؛ يؤمر فيه باتباعك .

٥٣ - (كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ) :

(كَلَّا) : ردع لهم عمَّا أرادوا وزجر لهم عن اقتراح الآيات .

(بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ) أى : لا أعطيهم ما يتمنون لأنهم لا يخافون الآخرة اغترارًا بالدنيا ، وإنما أفسدهم عدم إيمانهم بالآخرة وتكذيبهم بوقوعها ؛ فلذلك يعرضون عن التذكرة ويفتنُّون فى طلب الآيات واقتراحها ، وليس ذلك ناشئًا عن الامتناع عن إيتاء الصحف وحصول مقترحهم كما يزعمون .

---

(١) من الآية ٩٣ من سورة الإسراء .

٥٤- (كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ) :

(كَلَّا) : ردع لهم عن إعراضهم (إِنَّهُ) أى : القرآن ، أو التذكرة السابقة فى قوله تعالى : (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ) ، (ذكر) لأنه بمعنى القرآن أو الذكر .

(تَذْكِرَةٌ) أى : عظة وأى عظة ، وقيل : المعنى : حقًّا إن القرآن لعظة بالغة نافعة كافية .

٥٥- (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ) :

أى : فمن شاء قرأه فاتعظ به ، وقيل : فمن شاء أن يذكره ولا ينساه ويجعله نصب عينيه فعل ذلك واتعظ به ؛ فإن نفع ذلك راجع إليه .

٥٦- (وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) :

(وَمَا يَذْكُرُونَ) أى : ومايذكرون بمجرد مشيئتهم للذكر كما هو المفهوم من ظاهر قوله تعالى : (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ) إذ لا تأثير لمشيئة العبد وإرادته فى أفعاله . (إِلَّا أَن يَشَآءَ اللَّهُ) وهذا تصريح بأن أفعال العباد بمشيئة الله - عز وجل - ومثله : « وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّا أَن يَشَآءَ اللَّهُ »[1] .

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى) أى : هو حقيق بأن يتقى عذابه ويؤمن به ويطاع .

(وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) وحقيق بأن يَغْفِر لمن آمن به وأطاعه .

أخرج أحمد والترمذى - وحسنه - والحاكم - وصححه - والنسائى وابن ماجة وخلق آخرون :

عن أنس : أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية (هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) فقال : « قالَ رَبكُم : أنا أهل أنْ أُتَّقَى ؛ فلا يُجْعَلْ معى إله ، فَمَنِ اتقانى فلم يَجْعَلْ معى إلهًا آخَرَ فأنا أهلٌ أنْ أغفِرَ له » والله أعلم .

---

(١) الآية ٢٩ آخر سورة التكوير .

سـورة القيـامة

ويقال لها سورة (لَآ أُقْسِمُ) وهى مكية وعدد آياتها أربعون .

مناسبتها لما قبلها :

لمّا ذكر تعالى فى السورة التى قبلها وهى (سورة المدثر) قوله سبحانه : « كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ »[1] بعد ذكر الجنة والنار ، وكان عدم خوفهم من الآخرة لإنكارهم البعث ، ذكر جلّ وعلا فى هذه السورة (سورة القيامة) الدليل على البعث بأتم وجه وأقوى حجة .

بعض مقاصد السورة :

١ - بُدِئت السورة الكريمة بالقسم بيوم القيامة وبالنّفس اللّوّامة على أنّ البعث حق وآتٍ لا ريب فيه ، ووصفت يوم القيامة وأحواله وأهواله : (لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ...) إلخ .... فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ...) إلخ .

٢ - ولمّا كان الرسول حريصًا على تلقى الوحى وحفظ القرآن فقد طمأنته الآيات على أن الله قد تكفّل له بأنْ يجمع القرآن فى صدره ، وأن ييسره لتلاوته على الوجه الذى تلقاه عن جبريل ، وأن يُفَسِّره ويوضّح معناه له : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ...) إلخ .

٣ - ثم زجرت الآيات المنكرين للبعث وبينت أن سببَ إنكارهم له حُبُّهم للعاجلة ، وإقبالهم على ملذّاتها الفانية وتركهم للآخرة ونعيمها الباقى : (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ..) إلخ .

٤ - وتحدثت السُّورة الكريمة عن المؤمنين يوم القيامة وأن وجوههم تكون ناضرة ، كما تحدثت عن أن وجوه الكافرين تكون باسرة كالحة : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ...) إلخ . وذكرت أحوال المُحْتضر ومايلاقيه من أهوال عظام وشدائد جسام جزاء عصيانه لله وللرسول وتقصيره فى الواجبات حتى إنه ظن ألّا حساب عليه : (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ...) إلخ .

---

(١) سورة المدثر الآية ٥٣ .

٥ ـ وخُتِمَت السُّورة بذكر الدليل الذى يُوجِب الإيمان بالبعث لأنّ الذى خلق الإنسان من نطفة وسَوَّاه بشرًا سويًا قادر على أن يحيِىَ الموتى يوم القيامة لحسابهم على أعمالهم لأنّ الإعادة أهون من البدء فى قياس العقل وهو سبحانه على كل شىء قدير : (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ...) إلخ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) : قيل : إن (لَا) نفى لكلام ورَدٌّ له قبل القسم.. والمعنى : أقسم ـ على سبيل التوكيد ـ بيوم القيامة ، وقيل : إن (لَا) هنا لتوكيد القسم وتقويته .

(بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) : النفس التى تلوم صاحبها على الخير لِمَ لَمْ تستكثر منه وعلى الشر لِمَ فعلته ؟

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ) : أيظن الكافر أنَّا لا نقدر على إعادة عظامه وبجمعها من أماكنها المتفرقة .

(نُسَوِّىَ بَنَانَهُ) : فى القاموس البنان : الأصابع أو أطرافها وتسويتها إعادتها كما كانت مع صغرها .

(بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) : يريد الكافر أن يدوم على الفجور مدة عمره .

(يَسْأَلُ) : أى يسأل سؤال استهزاء وتكذيب .

(أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) : متى تقوم الساعة ؟

(بَرِقَ الْبَصَرُ) : بفتح الراء وكسرها : دهش وتحير فزعًا مما رأى من أهوال يوم القيامة .

(وَخَسَفَ الْقَمَرُ) : ذهب ضوؤه أو غاب .

(وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) : قُرِن بينهما فى الطلوع من المغرب .

(أَيْنَ الْمَفَرُّ) : المَفَرّ بفتح الفاء وبه قرأ الجمهور مصدر أى أين الفرار من أهوال يوم القيامة ؟ وبكسر الفاء وبها قرأ ابن عباس المكان الذى يُفَرّ إليه من ملجأ أو موئل .

(كَلَّا) : ردع عن طلب الفرار أو المَفرّ .

(لَا وَزَرَ) : لا ملجأ وكل ما التجأت إليه من جبل أو غيره وتحصنت فهو وَزَر .

(إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) : أى استقرار العباد أو مستقرهم أى موضع قرارهم من جنة أو نار فى يوم القيامة إلى ربك وحده .

(يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) : أى يُخبر الإنسان يومئذ بما قدم من عمل عمله وبما أخر منه فلم يعمله .

(عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) : حجة واضحة بينة على نفسه شاهدة بما صدر عنه من الأعمال .

(وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) : أى ولو جاء بكل معذرة ما قبلت منه .

والمعاذير : جمع مَعْذِرة بمعنى العذر على خلاف القياس ، وقيل : اسم جمع ، وقال السدى والضحاك :

المعاذير : السُّتور بلغة أهل اليمن واحدها مِعْذار .

التفسير

١ - (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) :

قال الزمخشرى : إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض فى كلامهم وأشعارهم قال امرؤ القيس :

فلا وأبيكِ ابنة العامِرىِّ لا يَدَّعِى القوْم أنى أفر

وفائدتها توكيد القسم ، والوجه أن يقال : هى للنفى ، والمعنى فى ذلك أنه لا يُقسم بالشىء إلَّا إعظامًا له بذلك ، وعليه قوله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ »[1] فكأنهُ بإدخاله حرف النفى يقول : إن إعظامى له بإقسامى به كلا إعظام ، يعنى أنه يستأهل فوق ذلك ، وقيل : إن (لَا) نفى لكلام ورَدٌ له قبل القسم ، كأنهم أنكروا البعث فقيل : (لَا) أى ليس الأمر على ما ذكرتم ، ثم قيل : أُقسم بيوم القيامة ... ا هـ كشاف ملخصًا بتصرف .

قال القرطبى : حكى أبو الليث السمرقندى أنه قال : أجمع المفسرون أن معنى (لَا أُقْسِمُ) : أُقسم والإتيان بلا صلة ، أى زيادة يجرى كثيرًا فى كلام العرب وقد ورد منه فى القرآن قوله تعالى : « قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ »[2] أى أن تسجد : والمعنى أُقسم وأؤكد القسم بيوم القيامة أى بيوم يقوم الناس فيه لربهم للجزاء والحساب .

---

(١) سورة الواقعة الآيتان ٧٥ ، ٧٦ .
(٢) سورة الأعراف من الآية ١٢ .

٢ - (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) :

أى : أقسم وأؤكد القسم بالنفس اللوامة ، والنفس اللوّامة (كما قال مجاهد) : هى النفس الخَيِّرة التى تلوم صاحبها على الشر لِمَ فعله ؟ وعلى الخير لِمَ لَمْ يستكثر منه فهى لم تزل لائمة وإن اجتهد فى الطاعات . فالمبالغة جاءت لدوام اللّوم .

وقيل : المراد بالنفس اللّوامة ، نفس آدم فإنها لم تزل تلوم نفسها على فعلها الذى خرجت به من الجنة ، قال الآلوسى : وأكثر الصوفية على أن النفس اللّوامة فوق الأمّارة وتحت المطمئنة وعرفوا اللّوامة بأنها هى التى تنورت بنور القلب قدر ما تنبهت عن سِنة الغفلة فكلما صدر عنها سيئة بحكم جِبلّتها الظلمانية أخذت تلوم نفسها ونفرت عنها - اهـ آلوسى .

وقيل : المراد باللوّامة : المَلُومة المذمومة وهى النفس الفاجرة الجشعة اللّوامة لصاحبها على ما فاته من سعى الدنيا وأغراضها . وجاء نحوه فى رواية ابن عباس ، وهذا قول من نفى أن يكون الكلام قسمًا إذ ليس للمعاصى قدر وشرف يقسم به .

وقيل : المراد بالنفس : جنس النفس الشاملة التقية والفاجرة ، وضعف الآلوسى القولين الأخيرين .

٣ - (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ) :

هذا جواب القسم أو دليل الجواب ، أى لتبعثن بعد جمع ما تفرق من عظامكم وصيرورتها رميمًا رُفاتًا مختلطًا بالتراب .

والمراد بالإنسان الجنس والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه ، أى : أيحسب الإنسان أن الشأن ألن نجمع عظامه بعد تفرقها ، والمعنى لِمَ يكون هذا الحسبان الكاذب المُنَافِى لحق اليقين وصريحه ، والنسبة إلى الجنس لأن فيه من يحسب ذلك ، بل لعله الأكثرون ، وقيل : المراد بالإنسان جنس الكافر المنكر للبعث ، وجوز أن يكون التعريف للعهد . والمراد بالإنسان هنا عدى بن أبى ربيعة ختن الأخنس بن شريق - وهما اللذان كان النبى ﷺ يقول فيهما : (اللّهم اكفنى جارى السوء) فقد روى أنّ عديًّا جاء إليه

عليه الصلاة والسلام فقال : يا محمد ، حدثني عن يوم القيامة متى يكون ؟ وكيف يكون أمره ؟ فأخبره رسول الله ﷺ فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أؤمن به ، أوَيجمع الله هذه العظام ؟ فنزلت ، وقيل : هو أبو جهل فقد روى أنه كان يقول : أيزعم محمد أن يجمع الله هذه العظام بعد بلائها وتفرقها فيعيدها خلقًا جديدًا فنزلت . قال الآلوسى : وذكر العظام — وإن المعنى على إعادة الإنسان وجمع أجزائه المتفرقة — لِمَا أنها قالب الخلق .

٤ — (بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ) :

أى : نجمع العظام بعد تفرقها وصيرورتها رميمًا ورفاتًا فى بطون البحار وبين الأودية ، والقفار حال كوننا قادرين على تأليف جمعها وإعادتها إلى التركيب الأول وعلى أن نسوى أصابعه التى هى أطرافه وآخر مايتم به خلقه ، أو على أن نسوى ونضم سلامياته على صغرها بعضها إلى بعض كما كانت أولًا من غير زيادة ولا نقصان ولا تفاوت ، فكيف بكبار العظام وما ليس فى الأطراف منها ، وقيل المعنى : بل نجمعها ونحن قادرون على أن نسوى أصابع يديه ورجليه ، أى : نجعلها مستوية شيئًا واحدًا كخف البعير وحافر الحمار لا نفرق بينها فلا يمكنه أن يعمل بها شيئًا مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والقبض والبسط والتأتى لما يريد من الحوائج ، وروى هذا عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وعكرمة — اهـ آلوسى والكشاف — .

ولا يخفى أن فى الإتيان بلا أولاً فى (لَا أُقْسِمُ) مما يزيد فى تأكيد الكلام وتقويته ، وحذف جواب القسم لتأخذ النفس فيه كل مأخذ ، والإتيان بقوله : (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ) من إيثار لفظ الحسبان على لفظ العلم ، والإتيان بهمزة الإذكار مسندًا إلى الجنس وبحرف الإيجاب فى (بَلَىٰ) والحال بعدها (قَادِرِينَ) — فى الإتيان بهذه من المبالغات فى تحقيق المطلوب وتفخيمه وتوبيخ المعرض عن الاستعداد ماتبهر عجائبه ، ثم الحسن كل الحسن فيما يتضمنه حرف الإضراب فى قوله تعالى : (بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) . — آلوسى — بتصرف .

٥ـ (بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) :

عطف على أيحسب ـ جيء به للإضراب عن إنكار الحسبان إلى الإخبار عن حال الإنسان الحاسب بما هو أدخل فى اللوم والتوبيخ من الأول ، كأنه قيل : دع تعنيفه فإنه أنشط من ذلك وأنى يرتدع وهو يريده أن يقيم ويستمر على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه . وعن مجاهد وابن جبير وغيرهما فى معنى الآية : إن الإنسان إنما يريد شهواته ومعاصيه ليمضى فيها أبدًا قدمًا راكبًا رأسه ومطيعًا أمله ومسوفًا لتوبته حتى يأتيه الموت على شر حاله وأسوأ أعماله ، وروى عن ابن عباس فى معنى الآية : هو الكافر يكذب بيوم الحساب . قال ابن كثير وهذا هو الأظهر ولهذا قال بعده :

٦ـ (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) :

قال ابن كثير : أى يقول : متى تكون القيامة ؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه وتكذيب لوجوده ، كما قال تعالى : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ »[1]

قال العلامة الآلوسى : وفيه أن من أنكر البعث يرتكب أشد الفجور لا محالة .

٧ـ (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ) :

فإذا تحير بصرهم فزعًا فهم ينظرون من الهلع هكذا وهكذا لا يستقر لهم بصر على شيء من شدة الرعب ، وأصله من بَرِق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره ، ومنه قول ذى الرمة :

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت ... لعينيه مَيٌّ سافرًا كاد يَبْرَق

وقيل : هو من البريق ، والمعنى لمع من شدة شخوصه .

والمراد أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من أمور . ونقل عن مجاهد أنه قال : فإذا بَرِق البصر عند الموت والاحتضار .

---

(١) سورة سبأ الآيتان ٢٩ ، ٣٠ .

٨ - (وَخَسَفَ الْقَمَرُ) :

أى : وذهب ضوء القمر ، والخسوف فى الدنيا إلى انجلاء بخلاف الآخرة فإنه لا يعود ضوؤه ، ويحتمل أن يكون المعنى ذهب واختفى ومنه قوله تعالى : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ »[١] .

٩ - (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) :

قال القرطبى : أى يجمع بينهما فى ذهاب ضوئهما ، وعن ابن عباس يجمع بينهما فى طلوعهما من المغرب أسودين مُكَوَّرين ، وقيل : تجمع الشمس والقمر فلا يكون ثَمَّ تعاقب ليل ولا نهار .

قال الآلوسى : وأحوال يوم القيامة على خلاف النمط الطبيعى ، وحوادثه أمور وراء الطبيعة .

١٠ - (يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ) :

أى : إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة حينئذ يريد أن يفر . ويقول : أين المفر ؟ أى هل من ملجأ أو موئل ، قال الماوردى : ويحتمل هذا وجهين ، أحدهما :أين المفر من الله حياء منه، الثانى : أين المفر من النار حذرًا منها ، ويحتمل أن يكون هذا القول من الإنسان على وجهين ، أحدهما :أن يكون من الكافر خاصة فى عرصة القيامة دون المؤمن ليتنعَّم المؤمن ببشرى ربه ، الثانى : أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ما شاهدوا منها .

١١ - (كَلَّا لَا وَزَرَ) :

(كَلَّا) ردع عن طلب المفر وتمنِّيه . (لَا وَزَرَ) : أى لا ملجأ يُتحصن به وليس لكم مكان تعتصمون فيه - وأصل الْوَزَر محركة - الجبل المنيع ، وقد كان مفرًّا فى الغالب لفرار العرب ، واشتقاقه من الوِزْر وهو الثِّقْل[٢] ، وصار حقيقة لكل ملجأ من جبل أو حصن أو سلاح أو رجل أو غير ذلك .

---

(١) سورة القصص من الآية ٨١ .

(٢) فى القاموس المحيط الوزر : الثقل والسلاح والحمل الثقيل .

١٢ - (إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) :

أى : إليه تعالى وحده لا إلى غيره استقرار العباد ، أى : لا ملجأ ولا منجى لهم غيره عز وجل ، أو إلى حكمه استقرار أمرهم لا يحكم فيه غيره ، أو إلى مشيئته تعالى موضع قرارهم من جنة أو نار ، فمن شاء أدخله الجنة ومن شاء أدخله النار .

والظاهر أن قوله تعالى : (كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) من تمام قول الإنسان ، كأنه بعد أن يقول : أين المفر ؟ يعود على نفسه فيستدرك ويقول : (كَلَّا لَا وَزَرَ ...) إلخ

وقيل : هو من كلام الله تعالى ، يقال للقائل : أين المفر ؟ لا حكاية عن الإنسان ، ويجوز أن تكون (كَلَّا) فى قوله تعالى : (كَلَّا لَا وَزَرَ) بمعنى أَلَا الاستفتاحية أو بمعنى حقًّا.

١٣ - (يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) :

المعنى : يخبر الإنسان يومئذ - وذلك عند الأكثرين - عند وزن الأعمال بما قدم وأخر ، أى : بما قدم من عمل عمله وبما أخر منه فلم يعمله ، أو بما قدم من ماله فتصدق به وبما أخره فخلفه للورثة ، أو بما قدم من عمل الخير والشر وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة فعمل بها بعده . وعن مجاهد بأول عمره وآخره .

١٤ - (بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) :

أى : بل الإنسان حجة واضحة على نفسه شاهدة بما صدر عنه ، تلزمه بما فعل أو ترك ، وجعل الحجة بصيرة لأن صاحبها بصير بها ، أو هى بمعنى دالة مجازًا ، كما وصفت الآيات بالإبصار فى قوله تعالى : « فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً »[1] . والتاء فى بصيرة للمبالغة مثلها فى علَّامة ونسَّابة ، أو لتأنيث الموصوف ، أى حجة ، وقيل : لأن المراد بالإنسان هنا الجوارح : أى جوارحه على نفسه بصيرة ، أى شاهدة عليه بعمله ، ونسب هذا للعتبى والمعنى : يُنَبَّأُ الإنسان بأعماله ، بل فيه ما يُجزئ عن الإنباء لأنه عالم بتفاصيل أحواله شاهد على نفسه بما عملت ، لأن جوارحه تنطق بذلك . ومثله فى كتاب الله قوله تعالى :

(١) سورة النمل من الآية ١٣ .

«يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»[1]، وقال القرطبي: قيل المراد من البصيرة الكاتبان اللذان يكتبان الأعمال .

١٥ – (وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ) :

أى : هو على نفسه حجة وهو شاهد عليها ولو طرح معاذيره وبسطها لا يمكنه أن يتخلص منها ، أو ينبأ بأعماله ويجازى لا محالة ولو أتى بكل عذر ، فهو تأكيد لما يفهم من مجموع قوله تعالى : (يُنَبَّأُ الإِنسَانُ) إلخ – والمعاذير جمع معذرة بمعنى العذر على خلاف القياس ، والقياس معاذر ، وأطلق عليه الزمخشرى اسم الجمع فالمراد بالمعاذير الإدلاء بالحجة والاعتذار من الذنب .

وقال السُّدِّى والضحاك : المعاذير الستور بلغة أهل اليمن واحدها معذار ، وحكى ذلك عن الزجاج قال الشاعر :

ولكنها ضنت بمنزل ساعة   علينا وأطت[2] فوقها بالمعاذر

فيكون قوله تعالى : (وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ) أى : ولو أرخى ستوره ، والمعنى أن احتجابه فى الدنيا واستتاره لا يغنى عنه شيئاً ، لأن عليه من نفسه بصيرة .

قال الزمخشرى : سمى الستر بلغة أهل اليمن معذارًا لأنه يمنع صورة المحتجب به كما تمنع المعذرة عقوبة الذنب .

---

(١) سورة النور الآية ٢٤ .
(٢) حركت .

(لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(لِتَعْجَلَ بِهِ) : لتأخذه على عجلة لئلا ينفلت منك .

(إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ) : أى إن علينا جمعه فى صدرك أى تكفلنا بذلك .

(وَقُرْآنَهُ) : أى جريانه على لسانك - والقرآن - القراءة .

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ) : أى أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل المبلِّغ عنا .

(فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) : فكن مقفِّيا له، وقيل : فاستمع لقراءته وأنصت له ثم اقرأه كما أقرأك جبريل .

(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) : ثم إن علينا توضيح ما أُشكل عليك من معانيه وأحكامه .

(كَلاَّ) : أداة استفتاح بمعنى ألا ، أو ردع لمن أنكر البعث .

(نَاضِرَةٌ) : حسنة مشرقة متهللة من النضرة أو النضارة ، يقال : نضرهم الله ينضرهم نضارة ونضرة ، وهو الإشراق والعيش الناعم والغنى ، ومنه الحديث :(نضَّر الله امرأً سمع مقالتى فوعاها) .

(بَاسِرَةٌ) : متغيرة الألوان مسودة شديدة الكُلُوحة والعبوس .

(فَاقِرَةٌ) : داهية عظيمة تقصم فقار الظهر من فَقَرَهُ أصاب فِقاره ، وقال أبوعبيدة : فاقرة – من فقرت البعير إذا وسمت أنفه بالنار .

التفسير

١٦ – (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) :

قال ابن كثير : هذا تعليم من الله – عز وجل – لنبيه ﷺ فى طريقة تلقيه الوحى من الملك ، فإنه كان يبادر إلى أخذه ، ويسابق المَلَك فى قراءته ، فأمره الله – عز وجلّ – إذا جاءه المَلَك بالوحى أن يستمع إليه ، وتكفل له سبحانه أن يجمعه فى صدره وأن ييسره لأدائه على الوجه الذى ألقاه إليه ، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه .

قال الآلوسى : أخرج الإمام أحمد والبخارى وغيرهم عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله سبحانه : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) إلخ .

فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل – عليه السلام – أطرق ، وفى لفظ استمع ، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله – عز وجل – فالخطاب فى قوله تعالى : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) للنبى ﷺ والضمير فى (بِهِ) للقرآن للدلالة عليه من السياق ، مثل قوله تعالى : « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ »[1] أى : لاتحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحى عليك من قبل أن يُقْضَى إليك وحيه (لِتَعْجَلَ بِهِ) أى : لتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك على ما يقتضيه كلام ابن عباس ، وقيل : لمزيد حبك له وحرصك على أداء الرسالة ، فكان ﷺ لا يحرك لسانه بقراءة القرآن مادام جبريل يقرأ بل ينصت إليه ملقيًا إليه بقلبه وسمعه حتى يُقضى إليه وحيه ثم يُقَفِّيه ويتبعه بالقراءة والدراسة حتى يرسخ فى نفسه .

١٧ – (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ) :

ثم علل النهى عن العجلة بقوله : إن علينا جمعه أى : جمعه فى صدرك بحيث لايذهب

---

(١) سورة القدر الآية ١ .

ولا يتفلت شىء منه عليك (وَقُرْءانَهُ) أى : وإثبات قراءته فى لسانك بحيث تقرأه كما شئت وقيل : وقراءتك إياه أى جريانه على لسانك، فالقرآن هنا وكذا فيما بعد مصدر كالرجحان بمعنى القراءة كما قال الشاعر :

ضحّوْا بأشمط[1] عنوان السجود به   يقطّع الليل تَسبيحاً وقرآنا

١٨ - (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءانَه) :

المعنى : فإذا أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل- عليه السلام- المبلغ عنا فكن مقفيا لا مباريا له ، وقيل : فإذا قرأناه فاتبع بفكرك وذهنك قرآنه » أى : فاستمع وأنصت . وصح هذا من رواية الشيخين وغيرهما عن ابن عباس ، وعنه أيضًا وعن قتادة والضحاك أى فاتبع فى الأوامر والنواهى قرآنه ، وقيل : اتبع قرآنه بالدرس على معنى فكرّره حتى يرسخ فى ذهنك ، وفى الإسناد المجازى فى قوله تعالى : (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ) واختيار نون العظمة مبالغة فى إيجاب التأنى فى قراءة القرآن .

١٩ - (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) :

أى : ثم إن علينا بعد حفظه وتلاوتك له أن نبيِّنه ونوضحه لك ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا ونبين لك ما أشكل عليك من معانيه وأحكامه .

قال الزمخشرى ، كأنه كان يعجل فى الحفظ والسؤال عن المعنى جميعًا كما ترى بعض الحرّاص على العلم ، ونَحْوُه قولُه تعالى : (وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ »[2] .

٢٠ ، ٢١ - (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ، وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ) :

(كَلَّا) إرشاد من الله -جل وَعَلَا- لرسوله ﷺ ، وأخذٌ له وبعد به عن عادة العجلة وترغيب له فى الأناة ، ولمزيد حبه إياه أتبعه قوله تعالى : (بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ

---

(١) أشمط من الشمط وهو بياض الرأس يخالط سواده والمراد أنه كبير السن .
(٢) سورة طه من الآية ١١٤ .

الآخِرَةَ) وذلك تعميم الخطاب للكل كأنه قيل : بل أنتم يابنى آدم لما خلقتم من عجل ، وجُبِلتم عليه تعجلون فى كل شىء ، ولهذا تحبون العاجلة أى الدار الدنيا والحياة فيها ، وتذرون الآخرة أى : وتتركون الآخرة والعمل لها ، وقيل: الآخرة الجنة ويتضمن استعجالك حين تتلقى الوحى : لأن عادة بنى آدم الاستعجال ومحبة العاجلة ، وفيه أيضاً أن الإنسان وإن كان مجبولا على ذلك إلا أن مثله ﷺ ممن هو فى أعلى منصب وهو مقام النبوة لا ينبغى أن يحمله مقتضى الطباع البشرية على ذلك .

ومن هذا يعلم أن هذا متصل بقوله سبحانه : (بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) فإنه مشير ومُلَوِّح إلى معنى بل تحبون العاجلة ... إلخ .

وقوله عز وجل : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) إلخ متوسط بين حُبَّى العاجلة - حبها الذى تضمنه (بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) تلويحاً ، وحبها الذى آذن به قوله تعالى :(بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ) إلخ تصريحاً - لحسن التخلص منه إلى المفاجأة والتصريح فى التفريع .

قال العلامة الآلوسى : والصحيح المأثور الذى عليه الجمهور أن الخطاب فى قوله تعالى : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) للرسول ﷺ والظاهر أن التحريك قبل النهى إنما صدر عنه عليه السلام بحكم الإباحة الأصلية فلا يتم احتجاج من جوز الذنب على الأنبياء بهذه الآية - ا هـ آلوسى بتصرف - .

٢٢ - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ) :

لما ردع الله - سبحانه وتعالى - عن حب العاجلة وترك الآخرة عقب ذلك بما يتضمن تأكيد هذا الردع بما يشير إلى حسن عاقبة حب الآخرة وسوء مغبة حب العاجلة فقال تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ) أى : وجوه المؤمنين المخلصين يوم القيامة حسنة جميلة متهللة من عظيم المسرة يشاهد عليها نضرة النعيم .

٢٣ - (إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) :

أى : وجوه المؤمنين إلى ربها ناظرة يوم القيامة بدون تحديد بصفة أوجهة أو مسافة ، أى يرى المؤمنون ربهم عياناً يوم القيامة .

وقد ثبتت رؤية المؤمنين ربهم -عز وجل- فى الدار الآخرة فى الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها ، وفى الصحيحين عن جرير قال : نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال : (إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر) وأخرج مسلم والترمذى عن صهيب عن النبى ﷺ أنه قال : (إذا دخل أهل الجنة يقول الله تعالى تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ؟ وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الله تعالى الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم) - ذكره الآلوسى - .

وقيل : الكلام على تقدير مضاف أى إلى مُلك أو رحمة أو ثواب ربها ناظرة ، والنظر يكون على معناه المعروف ، أو على تقدير مضاف والنظر يكون بمعنى الانتظار فقد جاء لغةً بهذا المعنى أى إلى نعم ربها منتظرة ، وتعقب بأن الحذف خلاف الظاهر ولا داعى إليه ، وبأن النظر بمعنى الانتظار لا يتعدى بإلى بل بنفسه ، وبأن لا يسند إلى الوجه فلا يقال وجه زيد منتظر ، والمتبادر من الإسناد إسناد النظر إلى الوجوه الحقيقية ، وهو يعنى إرادة الوجه على الحقيقة .

٢٤ - (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ) :

أى : ووجوه يوم القيامة كالحة شديدة العبوس متغيرة الألوان مسودة وهى وجوه الكفار .

٢٥ - (تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ) :

أى : تتوقع أن يفعل بها فعل هو فى شدته وفظاعته فاقرة أى داهية تقصم فقار الظهر كما توقعت الوجوه الناظرة إلى ربها أن يفعل بها كل خير .

والظن : قيل : أُريد به اليقين واختاره الطيبى ، وقيل : على معناه الحقيقى والمراد أن الوجوه تتوقع ذلك .

قال العلامة الآلوسى : وجىء بفعل الظن هنا دلالة على أن ما هم فيه وإن كان غاية الشر فإنهم يتوقعون بعده أشد منه وهكذا أبدًا ، وذلك أن المراد بالفاقرة مالا يُكْتَنَهُ ولا يتصور من العذاب ، فكل ما يفعل بهم من أشده ينبئ بتوقع أشد منه ، وإذا كان ظاناً كان أشد

عليه مما كان عالماً موطِّنا نفسه على هذا الأمر ، فهذا وجه الإتيان بفعل الظن ، ولم يؤت بفعل ظن أو علم بالنسبة للمؤمنين لأنهم وصلوا إلى ما لا مطلوب وراءه ، وهو النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى.ا هـ . بتصرف .

(كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(كَلَّآ) : ردع عن إيثار العاجلة على الآجلة .

(بَلَغَتِ) أى : الروح أو النفس .

(التَّرَاقِيَ) : أعالى الصدر وهى العظام المكتنفة ثغرة النحر عن يمين وشمال - جمع ترقوه ، وقيل : عظام الحلق .

(مَنْ رَاقٍ)؟ : أيكم يرقيه ليشفى- من الرُّقْية-: وعن ابن عباس مَنْ يَرْقَى بروحه إلى السماء - مِنَ الرُّقِى . (وَظَنَّ):وتيقن المحتضر .

(أَنَّهُ الفِرَاقُ) : أن هذا الذى نزل به هو فراق الدنيا .

(وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ) : والتصقت ساقه بساقه والتوت عليها عند رعدة الموت ، فالساق حقيقية ، وقيل : عبارة عن الشدة ، قال القرطبى : لا تذكر الساق إلا فى المحن والشدائد العظام ، ومنه قامت الدنيا على ساق وقامت الحرب على ساق .

(الْمَسَاقُ) : المرجع – أو سوق العباد إلى الجزاء .

(يَتَمَطَّى) : يتبختر فى مشيته اختيالا وعجبا ، وأصله يتمطط أى يتمدد ، لأن المتبختر يمد خطاه ، وقيل : من المطا وهو الظهر لأنه يلويه .

(أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) : تهديد ووعيد أى : هلاك لك أيها المكذب فهلاك ، ثم هلاك دائم لك فهلاك ، أو وليك ما تكره ثم وليك ما تكره . وفى الصحاح عن الأصمعى : قاربه ما يهلكه أى نزل به .

(سُدًى) : مهملا فلا يكلف بالشرائع ولا يجازى – يقال: إبل سدى أى مهملة ترعى حيث شاءت بلا راع .

(نُطْفَةً) : قال القرطبى : النطفة الماء القليل ، يقال نطف الماء إذا قطر ، والمراد بها نطفة الرجل يصب ويراق من الأصلاب فى الأرحام .

(فَسَوَّى) فعدله وكمله ونفخ فيه الروح (الزَّوْجَيْنِ) : النوعين .

التفسير

٢٦ – (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ) :

(كَلَّا) ردع عن إيثار العاجلة على الآجلة ، كأنه قيل : ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا لما بين أيديكم من الموت الذى ينقطع عنده ما بينكم وبين العاجلة من العلاقة ، وتنتقلون إلى الآجلة التى تبقون فيها مخلدين .

(إِذَا بَلَغَتِ) : الضمير فى بلغت للنفس أو الروح وإن لم يَجْرِ لها ذكر ، لأن الكلام يدل على ذلك ، كما قال تعالى : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ »[1] أى الشمس ولم يتقدم لها ذكر وقول حاتم :

أما وىّ ما يُغنى الثراءُ عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

أى الروح أو النفس (التَّرَاقِىَ) : العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال .

ذكَّرهم صعوبة الموت الذى هو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقى ويدنو خروجها وزهوقها وقال الحاضرون لصاحبها وهو - الْمُحْتَضَر - : (مَنْ رَاقٍ) .

٢٧ - (وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ) :

أى : قال من حضر صاحبها - الَّذِى أَشْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ - : من يرقيه وينجيه مما هو فيه - من الرُّقْية - وهى ما يستشفى به الملسوع واللديغ والمريض من الكلام المعد لذلك ومن آيات الشفاء ، ولعله أُريد به مطلق الطبيب ، أعم من أن يُطِب بالقول أو بالفعل ، والاستفهام عند بعض العلماء حقيقى ، وقيل : هو استفهام استبعاد وإنكار أى بلغ مبلغا لا أحد يرقيه ، كما يقال عند اليأس : من الذى يقدر أن يرقى هذا المشرف على الموت ؟ وروى ذلك عن عكرمة وابن عباس ، وقيل : هو من كلام الملائكة - أى أيكم يَرْقَى بروحه أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ من - الرُّقِىّ - وهو العروج ، وروى هذا عن ابن عباس وسليمان التيمى ، والاستفهام عليه حقيقى .

٢٨ - (وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ) :

أى : وظن الإنسان الْمُحْتضر أن ما نزل به هو الفراق للدنيا ونعيمها ، وقيل : فراق الروح للجسد ، والظن هنا عند أبى حيان على بابه ، وأكثر المفسرين على تفسيره باليقين ، قال الإمام الرازى : ولعله إنما سمى اليقين هنا بالظن لأن الإنسان مادامت روحه متعلقة ببدنه يطمع فى الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة ولا ينقطع رجاؤه عنها ، فلا يحصل له يقين الموت ، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة ، أو لعله سماه بالظن على سبيل التهكم .

---

(١) سورة ص من الآية ٣٢ .

٢٩ - (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ) :

الساق بمعناها الحقيقى والمعنى : والتصقت ساق بساق والتوت عليها عند هلع الموت .

وقال ابن عباس : التفَّتْ شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة ، ونحوه قول عطاء : اجتمع عليه شدة مفارقة المألوف من الوطن والأهل والولد والصديق وشدة القدوم على ربه - عز وجل - لايدرى بماذا يقدم عليه ، فالساق عبارة عن الشدة وهى مثل فى ذلك .

٣٠ - (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ) :

أى : سوق العباد إلى الله - عزوجل - لا إلى غيره ، والكلام على تقدير مضاف هو حكم أو موعد ، والمراد به الجنة أو النار ، وقيل : سوق هؤلاء العباد للجزاء مُفَوّض إلى ربك لا إلى غيره ، وقال ابن كثير : (الْمَسَاقُ) المرجع والمآب ، وذلك أن الروح ترفع إلى السماء فيقول الله - عز وجل - : ردوا عبدى إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أُعيدهم ومنها أُخرجهم تارة أُخرى . كما ورد فى بعض الأحاديث وكما قال تعالى : « ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ »[1] وجواب إذا فى قوله تعالى : (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ) مضمر دل عليه ما ذكر ، أى كان ماكان أو انكشفت للمرء حقيقة الأمر ، أو وجد الإنسان ما عمله من خيرٍ أو شرٍّ .

٣١ - (فَلَاصَدَّقَ وَلَا صَلَّى) :

(فَلَا صَدَّقَ) : أى : فلاصدق ما يجب تصديقه بما جاء به الله - عز وجل - والرسول ﷺ والقرآن الذى أنزل عليه (وَلَا صَلَّى) أى : ولا صلى ما فرض عليه ، أى : لم يصدق ولم يصل والضمير فى الفعلين فى قوله تعالى : (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى) للإنسان المذكور فى قوله تعالى : (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى) والجملة عطف على قوله تعالى : (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) على ماذهب إليه الزمخشرى ، فالمعنى بناء على ما علمت من أن السؤال فى قوله تعالى : (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) سؤال استهزاء واستبعاد ، استبعد هذا الإنسان البعث وأنكره فلم يأت بأصل الدين وهو التصديق بما يجب تصديقه بهولا بأهم فروعه وهو الصلاة ثم أكد ذلك بذكر ما يضاده ويخالفه بقوله : (وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى) وأثبت له التكذيب .

---

(١) سورة الأنعام من الآية ٦٢ .

٣٢ ـ (وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ) :

أى : ومع ذلك أظهر الجحود والتولى عن الطاعة فكذب بالقرآن وأعرض عن الإيمان والعمل بالشريعة .

٣٣ ـ (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ) :

أى : ثم ذهب إلى أهله يتبختر مباهياً بذلك مختالا مفتخرًا به ، ومن صدر عنه هذا ينبغى أن يخاف من حلول غضب الله عليه فيمشى خائفًا متطامنا لا فرحا متبخترا .

قيل : نزلت الآية فى أبى جهل وكادت تصرح به فى قوله تعالى : (يَتَمَطَّىٰٓ) فإنها كانت مشيته ومشية قوم من بنى مخزوم .

٣٤ ، ٣٥ ـ (أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ، ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ) :

(أَوْلَىٰ) من الولى بمعنى القرب فهو للتفضيل فى الأصل ، غلب استعماله فى قرب الهلاك ودعاء السوء كأنه قيل : هلاكا أولى لك ، بمعنى أهلكك الله تعالى هلاكًا أقرب لك من كل شر وهلاك ، واختار قوم أنه أفعل تفضيل ، والتقدير : النار أولى لك أى أنت أحق بها وأهل لها (فَأَوْلَىٰ)[1] .

(ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ) تكرير للتأكيد ، والظاهر أن الجملة تذييل للدعاء .

قال القرطبى : (أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ) تهديد بعد تهديد ووعيد بعد وعيد ، فهو وعيد أربعة لأربعة كما روى أنها نزلت فى أبى جهل الجاهل بربه فقال تعالى :

١ ـ فلا صدق . ٢ ـ ولا صلى . ٣ ـ ولكن كذب . ٤ ـ وتولى .

أى أنه لا صدق رسول الله ، ولا وقف بين يدى ربه فصلى ، ولكن كذب رسول الله وتولى ، فترك التصديق خصلة وترك الصلاة خصلة والتكذيب خصلة والتولى عن الله خصلة ، فجاء الوعيد أربعة (أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ، ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ...) إلخ ـ مقابلة لترك الخصال الأربعة والله أعلم .

---

(١) أولى فعل ماض مستتر فيه ضمير الهلاك بقرينة السياق واللام مزيد كما قيل ، وقيل فعل ماض دعائى من الولى أيضا إلا أن الفاعل ضميره تعالى واللام زائدة أى : أولاك الله ما تكره وقيل : اسم فعل مبنى ومعناه وليك شر بعد شر . اهـ آلوسى .

قيل : إن رسول الله ﷺ خرج من المسجد ذات يوم فاستقبله أبو جهل على باب المسجد مما يلى باب بنى مخزوم فأخذ رسول الله بيده فهزه مرة و مرتين ثم قال : (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) ، فقال أبو جهل : أتهددنى ؟ فوالله إنى لأعز أهل الوادى وأكرمه فنزل على رسول الله كما قال لأبى جهل ، وهى كلمة وعيد .

٣٦ـ (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى) :

أى : أيظن الإنسان أن يترك مهملًا فلا يكلف ولا يبعث ، قال ابن كثير : والظاهر أن الآية تعم الحالين ، أى لا يترك فى هذه الدنيا مهملًا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا محشور إلى الله فى الآخرة ، والمقصود هنا إثبات المعاد والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد ، والاستفهام إنكارى ، وكان تكريره بعد قوله تعالى : (أَيَحْسَبُ الْإِنسانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ) لتكريرهم إنكار الحشر مع تضمن الكلام الدلالة على وقوعه ، حيث إن الحكمة تقتضى الأمر بالمحاسن والنهى عن القبائح والرذائل ، والتكليف لا يتحقق إلا بمجازاة ، وهى قد لا تكون فى الدنيا فتكون فى الآخرة ، وجعل بعضهم هذا استدلالًا عقليًا على وقوع الحشر .

٣٧ـ (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى) :

استئناف وارد لإبطال الحسبان المذكور فى الآية السابقة فإن مداره : لما كان استبعادهم للإعادة والبعث دفع ذلك ورد عليه ببدء الخلق وكيفية النشأة الأولى فقال : (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى) أى : ألم يك الإنسان ناشئًا من قطرة ماء مهين يمنى ويراق ويصب فى الأرحام فالاستفهام للتقرير .

٣٨ـ (ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى) :

أى : ثم صار المنى علقة وهى قطعة من دم ثم مضغة وهى قطعة من لحم ثم شكله الله ونفخ فيه الروح وعدله وكمله فصار خلقًا آخر سويًا سليم الأعضاء فى أحسن تقويم بإذن الله وتقديره .

٣٩ ـ (فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى) :

(فَجَعَلَ مِنْهُ) : أى : فجعل من الإنسان أو المنى (الزَّوْجَيْنِ) الصنفين والنوعين (الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى) بدل من الزوجين ، يجتمعان تارة وينفرد كل منهما عن الآخر تارة أخرى .

٤٠ ـ (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى) :

أليس ذلك العظيم الشأن الذى أنشأ هذا الإنشاء البديع من هذه النطفة الضعيفة قادرًا أن يعيده كما بدأه ، ويحيى الموتى بعد جمع عظامهم للحساب والجزاء ، ولقد جاءت عدة أخبار أن النبى ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال : سبحانك وبلى ، وفى بعضها سبحانك اللهم فبلى ، ومن حديث أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (من قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى فليقل بلى) والله أعلم .

سـورة الإنسـان

مدنية وآياتها إحدى وثلاثون نزلت بعد الرحمن

وتسمى سورة الدهر والأبرار والأمشاج ، وهل أتى

مناسبتها لما قبلها :

ختمت السورة السابقة (سورة القيامة) بذكر بعض أطوار خلق الإنسان للدلالة على البعث لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة ، كما ذكرت جزاء المؤمنين وما أعد من عذاب للكافرين ، وفى هذه السورة (سورة الإنسان) تضمنت الكلام على خلق الإنسان وذكرت ما أعد للعاصين ، وفصلت ما هيأه الله للمتقين .

بعض مقاصدها :

١ ـ بدئت السورة الكريمة بالكلام على خلق الإنسان واختباره بالتكاليف .

٢ ـ بينت السورة بعض أنواع عِقاب العصاة ، وما هُيِّئ للمتقين من أنواع النَّعيم بتفصيل وإسهاب .

٣ ـ فى السورة أمر للرسول بالصبر لحكم الله وعدم طاعة الكافرين بعد أن امتنت عليه بنزول القرآن .

٤ ـ وضحت السورة أنها عِظَة (وكذلك القرآن) وعلَّقت الانتفاع بها على مشيئته سبحانه وتعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾)

المفردات :

(هَلْ أَتَى) : هل بمعنى قد ، والمعنى قد أتى ، على التقرير والتقريب جميعًا

(الْإِنسَانِ) : آدم- عليه السلام - أو الجنس من ذريته .

(حِينٌ) : وقت وزمان غير محدود وقد يجيء محدودًا .

وقال الآلوسي : طائفة محدودة من الزمان شاملة للكثير والقليل .

(الدَّهْرِ): الزمان الممتد غير المحدود ، ويقع على مدة العالم جميعها وعلى كل زمان طويل غير معين .

(مِن نُّطْفَةٍ) : أى من ماء يقطر وهو المنى - وكل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة .

(أَمْشَاجٍ) : جمع مَشَج بفتحتين كسَبَب وأسباب أو مَشِج بفتح فكسر ككَتِف ، وأكتاف - أى أخلاط جمع خِلْط بمعنى مختلط ، يقال : مشجت الشيء إذا خلطته ، وعن مجاهد أمشاج : أى ألوان ، وعن عكرمة وابن عباس أمشاج : أى أطوار .

(هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) : بيَّنَّا ووضَّحْنَا له طريق الحق والضلال .

(إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) : إما مؤمنًا وإما كافرًا .

التفسير

١ - (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا) :

قال الآلوسى : أصله على ما قيل - أهل- على أن الاستفهام للتقرير ، أى الحمل على الإقرار بما دخلت عليه والْمُقَرَّر والذى يطلب تقريره هو من ينكر البعث ، وقد علم أنهم يقولون : نعم قد مضى على الإنسان حينٌ من الدَّهر لم يكن كذلك ، فيقال فالذى أوجده بعد أن لم يكن كيف يمتنع عليه إحياؤه بعد موته . وقيل : هل بمعنى قد ، وهى للتقريب ، أى تقريب الماضى من الحال .

والمعنى : قد مضى على الإنسان ومر عليه أزمنة مختلفة قبل أن ينفخ فيه الروح وما كان شيئًا مذكورًا باسم ولا يعرف ما يراد منه . والمراد أنه معدوم لم يوجد بنفسه-بل كان الموجود أصله مما لا يسمى إنسانًا ولا يعرف بعنوان الإنسانية ، وقيل : المراد بالإنسان آدم-عليه السلام- وأيد الأول بقوله تعالى : (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ) ونُقل القولُ بأن المراد بالإنسان آدم-عليه السلام-عن جماعة منهم ابن عباس ، وحكى الماوردى عنه أن الحين المذكور هنا هو الزمن الطويل الممتد الذى لا يعرف مقداره ، وروى نحوه عن عكرمة فقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أنه قال : إن من الحين حينًا لا يدرك وتلا الآية فقال : والله ما يدرى كم أتى عليه حتى خلقه الله تعالى ، وقيل : إن المراد من الحين مدة الحمل وهى تسعة أشهر .

والذى فهمه أجلة من الصحابة - رضوان الله عليهم- من الآية الإخبار الإيجابى (أى قد أتى).

٢ - (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) :

أى : إنَّا خلقنا الإنسان من نطفة مختلطة ذات عناصر شتى ، ومعنى نطفة مختلطة عند الأكثرين نطفةٌ اختلط فيها وامتزج الماءان ماء الرجل وماء المرأة .

وعن عكرمة وابن عباس (أَمْشَاجٍ) : أى أطوار - أى ذات أطوار مختلفة ، فإن النطفة تصير علقة ثم مضغة .. وهكذا إلى تمام الخلقة ونفخ الروح (نَّبْتَلِيهِ) : أى نختبره بالتكليف فيما بعد (فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) :أى فجعلناه بسبب ذلك الابتلاء ذا سمع يسمع به الهدى وذا بصر يبصر به الحق ليختار الطاعة والمعصية بعد التكليف .

٣ـ (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) : جملة استئنافية تعليلية لِمَا قبلها فى معنى لأَنا هديناه : أى بَيَّنَّا له وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر ببعث الرسل والآيات الكونية والدلائل النفسية فآمن أو كفر كقوله تعالى : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ »[1] ، وقال مجاهد : السبيل إلى الشقاء والسعادة ، وقيل : منافعه ومضاره التى يهتدى إليها بطبعه وكمال عقله ، وعن مجاهد وغيره أنهم قالوا : (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) : أى سبيل الخروج من الرحم (إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) : أى أيهما فعل فقد بَيَّنَّاهُ له ، يقال :هديته السبيل وللسبيل وإلى السبيل ، والمشهور الأول أى هديناه إلى ما يوصل إلى البغية فى حالتيه جميعًا من الشكر والكفر .

قال القرطبى : لم يأت بصيغة المبالغة فى الشكر فيقول :(إِمَّا شَكُورًا) كما أتى بها فى الكفر فقال :(وَإِمَّا كَفُورًا) نفيًا للمبالغة فى الشكر وإثباتًا لها فى الكفر ، فإن شكر الله تعالى لا يؤدى على الوجه الأكمل فانتفت عنه المبالغة ولم ينتف عن الكفر المبالغة فقلة شكره لكثرة نعم الله عليه وعجزه عن القيام بشكرها ، وكثرة كفره وإن قل لعظم الإحسان إليه ـ حكاه الماوردى ـ اهـ قرطبى بتصرف .

ولَمَّا ذكر الفريقين (الشاكر والكفور) أتبعهما الوعد والوعيد فقال :

(١) سورة البلد : الآية ١٠ .

(إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾)

المفردات :

(سَلَاسِلَ) : قيوداً بها يسحبون فى جهنم .

(وَأَغْلَالًا) : جمع غل – تغل بها أيديهم إلى أعناقهم .

(الْأَبْرَارَ) : جمع بَرّ أو بار ، وهم المطيعون .

(كَأْسٍ) : خمر ، أو زجاجة فيها خمر. قال الراغب : (الكأس): الإناء بما فيه من الشراب ، ويسمى كل واحد منهما بانفراده كأسًا .

(مِزَاجُهَا) : ما تمزج الكأس به وتخلط .

(كَافُورًا) : ماء كافور .

(يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) : يُجْرُونها حيث شاءوا من منازلهم إجراء سهلًا .

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ) : أى إذا نذروا طاعة فعلوها .

(شَرُّهُ) : عذابه وضرره .

(مُسْتَطِيرًا) : فاشيًا منتشرًا .

(يَوْمًا عَبُوسًا) : اشتد عبوس من فيه ، أو تكلح فيه الوجوه لهوله .

(قَمْطَرِيرًا) : شديدًا صعبًا كأنه التف شره بعضه ببعض .

التفسير

٤ ـ (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا) :

بين سبحانه حال الفريقين وأنه تعبّد العقلاء وكلّفهم ومكّنهم ممّا أمرهم به ، فمن كفر فله العقاب ، ومن وحّد وشكر فله الثواب ، وفى هذه الآية الكريمة يخبر الله عمّا أعدّه وهيّأه للكافرين به من خلقه سلاسلَ يقادون بها فى جهنم ،كل سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا كما فى سورة (الْحَاقَّة) ، وأغلالًا تُغَلّ بها وتقييد أيديهم إلى أعناقهم وكان أبو الدرداء يقول: ارفعوا هذه الأيدى إلى الله قبل أن تُغَلّ بالأغلال ، قال الحسن : تجعل الأغلال فى أعناق أهل النار لا لأنهم أعجزوا الله ، ولكن إذلالًا لهم ، كما أعَدّ تعذيبًا لهم نارًا موقدة مُسَعَّرة بها يُحرقون ، وتقديم وعيدهم مع تأخرهم فى الذكر فى قوله تعالى : (إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) للجمع بينهما فى الذّكر كما فى قوله تعالى : (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ)[١] ، ولأن الإنذار أنسب بالمقام ، وحقيق بالاهتمام ، ولأن تصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أنسب ،ولـمّا ذكر ما أعده لهؤلاء الأشقياء من العذاب والسعير قال بعده :

٥ ـ (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا) :

شروع فى بيان حسن حال الشاكرين إثر بيان سوء حال الكافرين (وَالْأَبْرَارَ) جمع بار أو بَرّ وهو المطيع المتوسع فى فعل الخير ، وقيل : من يؤدى حق الله ويوفى بالنذر ـ هؤلاء الأبرار يشربون فى الآخرة من خمر أو من زجاجة بها خمر ،(كَانَ مِزَاجُهَا) : أى ما تمزج

(١) سورة آل عمران من الآية ١٠٦ .

بها الخمر وتخلط (كَافُورًا) أى : ماء كافور فى أحسن أوصافه ، وهو اسم عين فى الجنة ، ماؤها فى بياض الكافور ورائحته وبروده لأن الكافور لا يشرب .

٦ - (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) :

قال ابن كثير :أى هذا الذى مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفًا بلا مزج ويروون بها ، وقوله تعالى :(يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) :أى يتصرفون فيها حيث شاءوا ، وأين شاءوا من قصورهم وديارهم ومجالسهم ومحالهم ،ويُجْرونها كما أرادوا إجراء سهلًا لا يمتنع عليهم .

٧ - (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا) :

استئناف مسوق لبيان ما لأجله يرزقون هذا النعيم. مشتمل على نوع تفصيل لما ينبئ عنه اسم الأبرار إجمالًا ، كأنه قيل : ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية ، فقيل : (يُوفُونَ...)إلخ وأفيد أنه استئناف للبيان ومع ذلك فلعل السر فى أنه عدل عن أوفوا إلى المضارع (يُوفُونَ) للاستحضار والدلالة على الاستمرار .

والوفاء بالنذر : كناية عن أداء الواجبات كلها فإن من أوفى بما أوجبه على نفسه كان إيفاؤه بما أوجبه الله تعالى عليه أهم له وأحرى ، وجعل هذا كناية هو الذى يقتضيه ما روى عن قتادة حيث قال : يوفون بما فرض عليهم من الصلاة والزكاة والحج وغير ذلك من الواجبات ، وعن عكرمة ومجاهد إبقاؤه على الظاهر : أى إذا نذروا طاعة فعلوها ، ولا يخلفون إذا نذروا . والنذر ما أوجبه المكلف على نفسه من شىء يفعله (وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا) : أى يخافون يومًا كان عذابه وضرره البالغ فاشيًا منتشرًا فى الأقطار غاية الانتشار ، من استطار الحريق والفجر ، وفى وصفهم بذلك إشعار بحسن عقيدتهم واجتنابهم المعاصى لأنهم يتركون المحرمات التى نهاهم الله عنها خيفة من سوء الحساب يوم الميعاد ، وهو اليوم الذى ضرره خطير وشره مستطير : أى منتشر عام على الناس إلا من رحم الله . قال قتادة : استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض .

٨ - (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) :

(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ)أى : ويطعمون الطعام على حب الطعام :أى مع اشتهائه والحاجة إليه والرغبة فيه ، وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد .

أو على حب الإطعام : بأن يكون ذلك بطيب نفس وعدم تكلف ، وإليه ذهب الحسن ابن الفضل وهو حسن ، أو على حب الله تعالى ولوجهه سبحانه وابتغاء مرضاته ، وإليه ذهب الفضيل بن عياض وأبو سليمان الداراني ، ورجح الآلوسي وابن كثير الأول .

قال ابن كثير : والأظهر أن الضمير في قوله تعالى : (عَلَى حُبِّهِ) عائد على الطعام ، أى : ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له ، قال مجاهد ومقاتل واختاره ابن جرير كقوله تعالى : « وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ »[١] ، وكقوله تعالى : (لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)[٢] ، وفي الصحيح : (أفضلُ الصدَقةِ أنْ تَصدقَ وأنت صحيحٌ شحيح تأملُ الغنَى وتَخشَى الفقرَ) : أى في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه .

والظاهر أن المراد بإطعام الطعام حقيقته ، وقيل : هو كناية عن الإحسان إلى المحتاجين ومواساتهم بأى وجه كان وإن لم يكن ذلك بالطعام بعينه ، فكأنهم ينفعون بوجوه المنافع .

(مِسْكِينًا)أى : فقيرًا عاجزًا عن الكسب ، (وَيَتِيمًا) : صغيرًا فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال ولا مال له (وَأَسِيرًا) قال سعيد بن جبير وغيره :الأسير من أهل القبلة يكون عند الكفار ، وقال ابن عباس : كان أسراهم يومئذ مشركين ، ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى ، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الفداء ، واختاره ابن جرير لعموم الآية للمسلم والمشرك ، واختاره القرطبي أيضًا ، وقال : ويكون إطعام الأسير المشرك قربة إلى الله غير أنه من صدقة التطوع ،أما المفروضة فلا ،وقال عكرمة هم العبيد ، ولقد وصى رسول الله بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث ،حتى إنه كان آخر ما أوصى به أن جعل يقول : (الصلاة وما ملكت أيمانكم)، وقيل الأسير : - المحبوس في حق - وقال مقاتل :نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا .

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٧٧ .   (٢) سورة آل عمران من الآية ٩٢ .

٩ - (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا) :

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ) أى : إنما نطعمكم لطلب ثواب الله ورجاء جزائه ورضاه قائلين ذلك فى أنفسهم بلسان الحال لما يظهر عليهم من أمارات الإخلاص .

وعن مجاهد : أما إنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله تعالى منهم فأثنى به عليهم أيُرغب فيه راغب ، أو بلسان المقال دَفْعاً وإزاحة لتوهم المن المبطل للصدقة وتوقع المكافأة المنقصة للأجر وعن عائشة - رضى الله عنها - أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل البيت ثم تسأل الرسول : ماقالوا فإذا ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى لها ثواب الصدقة خالصاً عند الله - عز وجل - .

(لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا) أى : لانطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها لا بالأفعال كعوض وهديّة ، ولا بالأقوال كشكر وثناء علينا عند الناس ، وهذا تقرير وتأكيد لما قبله .

١٠ - (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا) :

أى : إنا نخاف من ربنا يوماً اشتد عبوسُ وكلوحُ وَجْهِ مَن فيه وقطبوا وجوههم وجباههم من هول شدته وشدة قسوته وصعوبته وطوله ، ووصف اليوم بالعبوس لعبوس أهله ، روى أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران ، قال الآلوسى : وهذه الجملة وهى قوله تعالى : (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا) جوز أن تكون علة لإحسانهم وفعلهم المذكور ، كأنه قيل : نفعل بكم ما نفعل لأننا نخاف يوماً صفته كيت وكيت ، فنحن نرجو بذلك أن يقينا ربنا - جل وعلا - شر ذلك اليوم ، وأن تكون علة لعدم إرادة الجزاء والشكور ، أى : إنا لانريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله تعالى على طلب المكافأة على الصدقة .

١١ - (فَوَقَـٰهُمُ اللهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا) :

(فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ) أى : فحفظهم الله وصانهم من شدائد ذلك اليوم وآمنهم مما خافوا منه (وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا) أى : وأعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة

وحسنا وبهجة ونورًا فى الوجوه وسرورًا فى القلب ، لأن القلب إذا سرَّ استنار الوجه ، قال كعب ابن مالك : (كان رسول الله ﷺ إذا سرَّ استنار وجهه كأنه فلقة قمر) .

١٢ - (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا) :

(وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا) أى : وكافأهم وأعطاهم بسبب صبرهم على مشاق الطاعات ومهاجرة هوى النفس فى اجتناب المحرمات (جَنَّةً) بستاناً عظيماً يأكلون منه ما شاءوا (وَحَرِيرًا) لباساً حسناً ناعم الملمس يلبسونه ويتزينون به ، وهذا يدل على أن الآية بسبب صبرهم أدخلهم الله الجنة وألبسهم الحرير عوضاً عن حرير الدنيا .

(مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾)

المفردات :

(الأَرَائِكِ)[1] جمع أريكة وهى سرير منجد مزين فى قبة أو بيت وقيل : الأرائك : الفراش على السرر .

(زَمْهَرِيرًا) : بردًا شديدًا أو قمرًا .

---

(١) وقيل : الأرائك : هى كل ما اتكىء عليه من سرير أو فراش أو منصة ، وكانت تسميته كذلك لكونه مكانا للإقامة أخذا من قولهم : أرك بالمكان أروكا : أقام ، وأصل الأروك : الإقامة على رعى الأراك وهو الشجر المعروف ثم استعمل فى غيره من الإقامات . ا هـ آلوسى .

(دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا) : قريبة منهم ظلال أشجارها .

(وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً) : أدنيت وسخرت ثمارها لهم ، والقُطُوف : الثمار جمع قِطْف بكسر القاف سمى به لأنه يقطف .

(بِآنِيَةٍ) : الآنية جمع إناء ككساء وأكسية وهو ما يوضع فيه الشيء ، والأوانى جمع الجمع .

(وَأَكْوَابٍ) : جمع كوب وهو قدح لاعروة له كما قال الراغب ، وفى القاموس: كوز لا عروة له أو لا خرطوم له .

(قَوَارِيرَ) : جمع قارورة وهى إناء رقيق من الزجاج يوضع فيه الأشربة .

(قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا)أى : قدرها السُّقاة أو الشاربون فى أنفسهم فجاءت كما قدروا لاتزيد على ذلك ولا تنقص .

(زَنجَبِيلاً) : قال الدينورى : الزنجبيل نبت فى أرض عمان وهو عروق تسرى فى الأرض وليس بشجرة يوجد لذعا فى اللسان إذا مزج بالشراب ، وعن قتادة ومجاهد اسم لِعَيْنٍ فى الجنة (سَلْسَبِيلاً) قال القرطبى : السلسبيل : الشراب ، اللذيذ وهو فَعْلَلِيل من السلاسة تقول العرب هذا شراب سلسل وسَلِسل وسلسال وسلسبيل بمعنى – أى : طيب الطعم للذيذه . وفى الصحاح ماء سلس وسلسال سهل الدخول فى الحلق لعذوبته وصفائه .

التفسير

١٣ – (مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا) :

يخبر الله عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم وما أسبغ عليهم من الفضل العظيم فقال : متكئين فى الجنة على السرر وهم فى تمام الراحة والنعيم (لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيرًا) أى : لايجدون فى الجنة حرًّا شديدًا يؤذى ولا بردًا قارساً يؤلم ، فهواؤها معتدل وفى الحديث هواء الجنة سجسج لاحر ولا قُرّ ، وقيل : الزمهرير: القمر فى لغة طيء ، والمعنى على هذا أن الجنة ضياء ونور لايحتاج فيها إلى شمس ولا إلى قمر .

١٤ ـ (وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا) :

(وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا) أى : قريبة منهم ظلال أشجارها ، والمراد أن ظلال أشجار الجنة قريبة من الأبرار مظلة عليهم وذلك زيادة فى نعيمهم (وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا) . أى : سُخِّرت ثمارها لتناولها ، وسهل أخذها ، من الذُّل ضد الصعب . قال قتادة ومجاهد وسفيان : إن كان الإنسان قائماً تناول الثمر دون كلفة ، وإن كان قاعدًا أو مضجعاً فكذلك فهذا تذليلها لايَرُدُّ اليد عنها بُعْدٌ ولا شوك ، قال الماوردى وذكره القرطبى : يحتمل أن يكون تذليل قطوفها . أن تبرز لهم من أكمامها وتخلص لهم من نواها .

١٥ ، ١٦ ـ (وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا . قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا) :

أى : ويدور الخدم فى الجنة على هؤلاء الأبرار بأوانى الطعام وأوعيته وهى من الفضة وبأكواب الشراب كُوِّنت قوارير شفافة ، قوارير مخلوقة ومصنوعة من فضة فلها بياض الفضة وحسنها وصفاء القوارير وشفيفها ، قال ابن عباس وغيره فى هذه الأكواب : هى من الفضة ومع هذا شفافة يُرى مافى باطنها من ظاهرها وهذا مما لا نظير له فى الدنيا .

قال الآلوسى : أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : ليس فى الجنة شىء إلا أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة ، قال الزمخشرى : ومعنى (كانت) فى الآية الكريمة هو من (يكون) فى قوله تعالى : « كُن فَيَكُونُ »[1] أى : فتكونت قوارير بتكوين الله تفخيماً لتلك الخلقة العجيبة الشأن الجامعة بين صفة الجوهرين المختلفين .

(قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا) أى : قدروا تلك القوارير فى أنفسهم فجاءت حسبما قدروا واشتهوا وتمنته أنفسهم ، والضمير فى قدروها للأبرار المُطَاف عليهم ، أو قدروا شرابها على قدر الرى وهو ألذ للشارب ـ قال ابن عباس : أتوا بها على الحاجة لا يفضلون شيئاً ولا يشتهون بعدها شيئاً ، وعن مجاهد تقديرها أنها ليست بالملأى التى تفيض ولا الناقصة التى تفيض فالضمير على ماهو الظاهر للسقاة الطائفين بها المدلول عليهم بقوله تعالى : (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ) .

---

(١) سورة مريم الآية ٣٥ .

١٧ - (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً) :

أى : ويسقى الأبرار فى الجنة فى هذه الأكواب خمرًا كان يُمْزَج بها ويُخْلط الزنجبيل فتارة يمزج الشراب للأبرار بالكافور وهو بارد ، وتارة يمزج بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر ، وأما المقربون فإنهم يشربون من الكافور والزنجبيل صرفاً ، قال قتادة وغيره : وكانت العرب تستلذ من الشراب ما يمزج بالزنجبيل لطيب رائحته ولأنه يُحْدِثها لذعاً فى اللسان ويهضم المأكول ولهذا يذكرون فى وصف رضاب النساء فَرُغِّبُوا فى نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة والطيب ، وقال قتادة ، الزنجبيل اسم للعين التى منها شراب الأبرار .

١٨ - (عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً) :

أى : عينًا فى الجنة تسمى سلسبيلا لطيب شرابها وسهولة مساغه ، وانحداره فى الحلق بسهولة ويسر ، قال الزجاج : السلسبيل فى اللغة اسم لما كان فى غاية السلاسة فكأن العين سميت بصفتها ، وقال أبو العالية ومقاتل : إنما سميت سلسبيلا لأنها تسيل عليهم فى الطرق وفى منازلهم .

وقال الزمخشرى : سميت العين زنجبيلاً لطعم الزنجبيل فيها ، والعرب تستلذه وتستطيبه (وَسَلْسَبِيلاً) لسلاسة انحدارها فى الحلق وسهولة مساغها ، يعنى أنها فى طعم الزنجبيل وليس فيها لذعه ولكن نقيض اللذع وهو السلاسة ، يقال : شراب سلسل وسلسال وسلسبيل وقيل : تسمى (سَلْسَبِيلاً) أى : أنها مذكورة عند الملائكة وعند الأبرار وأهل الجنة بهذا الاسم جعلنا الله من أصحابها بمَنِّهِ وكرمه آمين .

* ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

المفــردات :

(يَطُوفُ) من قولهم : طاف بالشيء : دار حوله ، ومنه الطائف ، وهو الذى يخدمك برفق وعناية .

(وِلْدَانٌ) : جمع وليد ، وهو الصبى والعبد .

(مُخَلَّدُونَ) : باقون دائمون لا يهرمون ، وقيل : غير ذلك .

(ثَمَّ) : هناك فى الجنة .

(سُندُس) : مارقَّ من ثياب الحرير .

(إِسْتَبْرَقٌ) : ما غلظ من ثياب الحرير .

(طَهُورًا) : بالغًا فى الطهر غايته ، وقيل : غير ذلك وسيأتى .

(مَشْكُورًا) : مقبولًا لدى الله مُثابًا عليه منه .

التفسير

١٩ – (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا) :

أى : ويدور حولهم ويقوم على خدمتهم بلطف ورفق وحسن عناية غلمان وصبيان ؛ ولعل الحكمة فى أن الله فطرهم وخلقهم على تلك الصورة .

أنهم فى سنهم هذه يكونون أخف فى الخدمة وأسرع فى الاستجابة ؛ تلبية لمخدوميهم وإرضاء لهم ، وهم مع ذلك باقون ودائمون على ما هم عليه من الشباب والغضاضة والحسن لا يهرمون ولا يتغيرون ، وقيل : مزينون ومحلَّوْنَ بالأساور والأقراط ليكون ذلك أدخل فى إيناس مخدوميهم ، وإذا نظر إليهم ورآهم أى راء ظنهم وحسبهم – لفرط حسنهم وجمالهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وتفرقهم فى مجالس مخدوميهم – ظنهم دُرًّا منثورًا مفرقًا فى جنبات المجلس وباحاته وساحاته فالدر المنثور يكون أكثر صفاء منه منظومًا فى سلك ، أو مسلوكًا فى خيط .

وفى التعبير بلفظ : (إِذَا رَأَيْتَهُمْ) للدلالة على حصول هذا الأمر ووقوعه ، أى أنه حاصل لا محالة .

٢٠ – (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا) :

أى : وإذا نظرت أيها الرائى هناك فى الجنة التى عرضها السموات والأرض رأيت من أنواع النعيم وألوانه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم يتوج ذلك ويجمله ويرتفع ويسمو به أن وجوههم ناضرة إلى ربها ناظرة .

(وَمُلْكًا كَبِيرًا): والملك الكبير ينظر فيه صاحبه فيرى أقصاه كما يرى أدناه ، يبصر فيه ما يملؤه بهجة ويزيده سرورًا ، وأى ملك أكبر وأبهى من ملك تدخل عليهم الملائكة فيه من كل باب قائلة تحية لهم : « سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ » ويرسل الله لهم ملائكته بالتحف والحلل ويدعوهم إلى النظر إلى وجهه الكريم . فسبحانك ربى صاحب الفضل العظيم والعطاء الجليل ، ما أكثر منّك وما أجلّ نعمك .

٢١ - (عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) :

أى : ويعلوهم ويجمل أبدانهم ثياب من رقيق الحرير ، وثياب أخرى فوقها من عظيمه وغليظه لونها أخضر ؛ ليكون ذلك أكمل لسرورهم ؛ لأن الخضرة تكسب النفس اطمئنانًا وتملأ الجوانب فرحًا وحبورًا ، كما يزينهم ويجملهم بالحلىّ من أساور الفضة . هذا وقد جاء فى آيات أخرى أنهم يحلون بالذهب واللؤلؤ ، وذلك إما أن يكون على المعاقبة فتارة يحلَّون بهذا وتارة يحلَّون بذاك أو كانت الزينة هنا بالفضة ليناسب ذلك ويتوافق مع مايطاف به عليهم من آنية الفضة وأكوابها (وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ).وذلك ليكمل التناسق ويتم التوافق بين مايأكلون ويشربون فيه ، ومايلبسون ويتزينون به ، وقيل : يكون لكل قوم ماتميل إليه نفوسهم ، أو أنه يجمع لهم بين الذهب والفضة واللؤلؤ .

(وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) أى : وكما جمل ظاهرهم باللباس والحلى طهر باطنهم بشراب قد تناهى فى الطهر وبلغ فيه الغاية حتى إنه يطهر سواه وينقيه ويُذْهِبُ مابه من كَدَر وأذى وقذر وغل وحسد ليَكْمُلَ ويَتِمّ لهم جمال الظاهر ونقاء الباطن . وفى تفسير الإمام القرطبى : قال علىٌّ - رضى الله عنه - فى قوله تعالى : (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) : إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مرُّوا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان فيشربون من إحداهما فتجرى عليهم نضرة النعيم ، فلا تتغير أبشارهم ولا تتشعث أشعارهم أبدًا ، ثم يشربون من الأخرى فيخرج مافى بطونهم من الأذى ، ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون لهم : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » .

وفى نسبة السقى إلى الله - سبحانه - فى قوله : (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ) مايدل على مزيد فضل هذا الشراب على ماسواه من الكافور والزنجبيل والسلسبيل ؛ إذ إنه إتحاف منه - جل شأنه - دون وساطة أحد من خلقه .

٢٢ - (إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا) :

أى : إن هذا الذى أنعم الله به عليكم فى الجنة كان جزاء وثوابًا على ما قدمتم من أعمال صالحة وأفعال مبرورة فى دنياكم ، نظيره قوله تعالى : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ »[1].

يقال لمن يعاقب : هذا بعملك السيء الردئ فيزداد غمه وألم قلبه ، ويقال للمثاب : هذا لك بطاعتك ، فيكون ذلك تهنئة له وزيادة فى سروره .

(وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا) أى : وكان عملكم الذى عملتموه فى الدنيا مقبولاً لدى الله ومرضيًا منه - سبحانه - فيكون بهذا قد جمع الله لعباده الطائعين بين منزلة رضاهم عن ربهم بالثواب العظيم فى الجنة ؛ وبكونه - عز شأنه - رضى عنهم بقبول عملهم وشكرهم عليه فتكون نفوسهم فى تلك الحالة قد وصلت إلى أنها راضية مرضية ، وهذه هى أعلى الدرجات وأرفع المقامات ؛ فكانت جديرة أن يختم الله بها مراتب الأبرار وأحوال المتقين والصديقين الأطهار .

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾)

المفـــردات :

(آثِمًا) : ذا إثم وذنب ، أو المبالغ فى ارتكاب الذنوب .

(كَفُورًا) الكفور : المتناهى فى الكفر الداعى إليه .

(بُكْرَةً) : أول النهار .

(أَصِيلًا) : الأصيل : هو الوقت بعد العصر إلى المغرب .

٢٣ - (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً) :

أى : إننا نحن - لا غيرنا - قد نزلنا عليك هذا القرآن العظيم فهو من لدنَّا ، وما افتريتَه ولا جئتَ به من عندك ولا من تلقاء نفسك كما يدَّعى المشركون والمكذبون ذلك ويزعمون أنه من عندك (إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) وقد أنزل هذا الكتاب الجليل الكريم بما يشتمل ويتضمن ما يحتاج إليه الناس فى أمر معاشهم ومعادهم ، وليس بسحر ولا كهانة ولا شعر ، بل إنه الحق ، وفى ذلك من إزالة الوحشة الحاصلة لرسول الله ﷺ بسبب طعن الكفار فى القرآن الكريم ، فيكون المعنى : إذا كان بعض الجهال قد طعن فيما أنزلته عليك إلَّا أن جبار السموات والأرض قد عظمه وصدقه .

قال الإمام ابن عباس : أنزل الله القرآن مفرقًا آية بعد آية ولم ينزل جملة واحدة ؛ فلذلك قال : (نَزَّلْنَا) .

٢٤ - (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا) :

أى : فاحبس نفسك واصبر على كل ما حكم به ربك سواء كان ذلك تكليفًا خاصًّا بك من العبادات والطاعات ونحوها ، أو متعلقًا بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة وتحمل المشاق الحاصلة والناشئة عن ذلك .

(وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا) أى : ولا تتبع سبيل من كان منهم مغرقًا فى الإثم مفرطًا فيه ولا من تناهى فى الكفر ودعا إليه ، سواء أُريد شخص بعينه أو كان مرادًا به كل آثم وكفور . وقد جاءت (أَوْ) هنا للعطف بدل الواو ؛ للإيذان بأن كلاً من الآثم والكفور وحده حقيق وجدير أن يُعصى ولا يُطاع ؛ فكيف وقد جمع بينهما فى النهى عن طاعتهما معًا .

قال الزجاج : إن (أو) هنا أوكد من الواو ؛ لأنك إذا قلت لا تطع زيدا وعمرا فأطاع أحدهما كان غير عاص ، فإذا أبدلتها بأو فقد دللت على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى ، ويعلم منه النهى عن إطاعتهما معا كما لا يخفى .

٢٥ -(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) :

أى : وداوم على ذكر ربك بلسانك مستحضراً ربوبيته ورعايته لك وأنك مخلوق له يقوم على أمرك ويتولى شأنك إذ هو قيوم السموات والأرض ، وأن يكون الذكر فى أول النهار مبتدئًا به يومك ليعمك الخير وتُهدى إلى البر ويشملك التوفيق ، وتذكره كذلك فى وقت الأصيل وهو من العصر إلى المغرب ، أو من الزوال إلى غروب الشمس ، أى : املأ نهارك كله بذكر الله .

٢٦ - (وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا) :

أى : وفى جزء من الليل اخضع لربك وصلِّ له واقترب منه ؛ فإن العبد أقرب مايكون من ربه وهو ساجد ، وقيل : المراد من الذكر فى البكرة صلاة الصبح ، وفى الأصيل صلاة الظهر والعصر ، ومن قوله : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ) صلاة المغرب والعشاء .

(وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا) أى : سبح ربك وقدِّسْهُ ونزِّهْهُ عمَّا لا يليق بجنابه الكريم ، ومقامه السامى الرفيع فى هزيع وجزء من الليل ؛ لأن الليل وقت المناجاة ، وصفاء النفس ، والبعد عن شواغل الحياة ، وهو أيضًا وقت نزول الرحمات ، وبخاصة فى آخره - فإن رحمة الله تتنزل إلى سماء الدنيا ليغفر ربنا - سبحانه - لمن استغفره ، ويعطى من سأله ، ويستجيب لمن دعاه ، ولعل المراد من السجود المأمور به فى الآية هو صلاة الليل وهى التهجد الذى هو مندوب إلَّا فى حقه ﷺ فإنه واجب عليه ، اختصه الله به ليرفعه إلى الدرجات العلا والمنزلة العظمى ، قال تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا »[1] .

---

(١) الآية ٧٩ من سورة الإسراء .

(إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(الْعَاجِلَةَ) : الدنيا .

(يَوْمًا ثَقِيلًا) : عسيرًا شديدًا وهو يوم القيامة .

(وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ) الأسر فى الأصل : هو الشد والربط ، والمراد : وأحكمنا ربط أجزائهم بعضها ببعض .

التفسير

٢٧ـ (إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا) :

هذا تقريع وتوبيخ للمشار إليهم وهم أهل مكة ، وقيل : إنها نزلت فى يهود ، أى أنهم بسبب الشهوة والمحبة لهذه اللَّذات الجسدية والمتع الدنيَّة البدنية يفرحون ويحبون الدنيا العاجلة التى تُؤْذِنُ بانصرام ، وتُعْلِمُ بانقضاء وانتهاء ، ويتركون ويدعون خلف ظهورهم دون انتباه إليه أو التفات نحوه يذرون يومًا شديدًا عسيرًا يثقل حمل مافيه ، ويضعف الإنسان عن تحمل مشاقه وصعابه وهو يوم القيامة وما فيه من نشر وحشر وحساب .

٢٨ـ (نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا) :

أى : نحن ـ لا غيرنا ـ خلقناهم من طين بدءًا من آدم ـ عليه السلام ـ وفى أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم ، وأعطيناهم القُوَى والقُدَرَ وشددنا وربطنا مفاصلهم وأوصالهم بعضهم ببعض ربطناها بالأعصاب والعروق ، وذلك فى إحكام حكيم وربط وثيق لا يهتدى إليه أحد

سوانا ، فكل المخلوقات قَهْر عظمتنا ، والأَسر فى الأَصل : هو الشد والربط ، وأُطلق على مايشد ويربط به ، وكانت الأَعصاب والعروق للشد والربط لأَنها تشبه الحبال التى يربط بها ، والمراد : شدة الخلق وكونه موثقًا حسنًا ، قال تعالى : « الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ »[1] والكلام هنا جاء للامتنان وبيان فضل الله عليهم ، وذلك بإسداء النعم الجليلة التى قابلوها بالمعصية ، أى : سويت خلقكم وأحكمته ومددتكم بالقوى وكرَّمتكم ثم تكفرون بى ؟!

(وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا) : هذا تهديد لهم بالإهلاك ، أى : وإذا أردنا إهلاكهم وتدميرهم جئنا بأَمثالهم فى شدة الخلق وإحكام الصنع ممن يطيعنا ويمتثل أمرنا ؛ فقدرتنا صالحة لذلك لا يتأَبَّى عليها شىءٌ من الممكنات ما دامت إرادتنا قد تعلقت به .

(إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾)

المفردات :

(تَذْكِرَةٌ) : موعظة .

(سَبِيلًا) : طريقًا إلى مرضاة الله .

(أَعَدَّ لَهُمْ) : هيأه لهم .

---

(١) الآية ٦ من سورة الانفطار .

٢٩ - (إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا) :

أى : إن هذه السورة بما فيها من الترتيب العجيب والنسق البديع والوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب تذكرة وموعظة للمتأملين ، وتبصرة للمستبصرين ، فمن شاء وأراد الخير لنفسه فى الدنيا والآخرة اتخذ وسلك طريقًا إلى ربه بالتقرب إليه بما يحبه ويرضاه .

٣٠ - (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) :

أى : لايقع ما تريدونه ولا يتم ما تشاءونه بإرادتكم ؛ فأعمالكم التى لكم فيها الاختيار لا تتم ولا تقع وفق اختياركم لها ، وإنما ذلك مرهون وموقوف على مشيئة الله لذلك ، فما شاء - سبحانه - كان وحصل ، وما لم يشأ لا يكون ولا يحدث ، قال تعالى : « وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ »[1]. وقال ابن كثير : لا يقدر أحد أن يهدى نفسه ولا يدخل فى الإيمان ، ولا يجرّ لنفسه نفعاً إلاّ بمشيئته - تعالى - .

(إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيمًا) أى : أنه - سبحانه - حكيم فى تدبيره يحيط إحاطة تامة ويعلم علمًا كاملاً بمن هو أهل لأن يمنحه الهداية ويذلل له طريقها فييسرها له ، كما يعلم - جل شأنه - من ليس أهلا لإكرامه وإنعامه - وقد اختار الضلالة وآثر المعصية - فييسر له سبيل الغواية ، ويمهد له طريق الضلال ، قال تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ »[2] :

٣١ - (يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) :

هذه الآية كالمترتبة على ما سبق من قوله تعالى : (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ) أى : أن دخول الجنة يكون بمحض مشيئته وفضله ورحمته - سبحانه - وأن تعذيب الله للظالمين من عصاة وكافرين يكون أيضاً بعدل الله وإرادته ؛ فلا مكره له - سبحانه - وقد أعد وهيأ لهؤلاء الفاسقين الظالمين عذاباً موجعًا شديد الإيلام ينتظرهم وهو - جل شأنه - لامعقب لحكمه ولا راد لقضائه وهو أحكم الحاكمين .

(١) الآية ١٨ من سورة الأنعام . (٢) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل .

سورة المرسلات

مكية ، وآياتها خمسون

هذه السورة الكريمة من السور الخمس التى قال فيها رسول الله ﷺ : « شيبتنى هود وأخواتها » وهذه السور هى : هود ، والواقعة ، والمرسلات ، والنبأ ، والتكوير ؛ وذلك لما فى تلك السور من إظهار عدل الله المطلق وبطشه ، وشديد عذابه ، وقوة سلطانه .

قال ابن مسعود : نزلت تلك السورة على رسول الله ﷺ ليلة الجن ونحن نسير معه حتى أوينا إلى غار بمنى فنزلت ، فبينما نحن نتلقاها منه وإن فاه لرطب بها - إذ وثبت حيّة فوثبنا عليها لنقتلها فذهبت ، فقال النبى - عليه الصلاة والسلام - : (وقيتم شرها كما وقيت شركم) وهذا الغار يعرف بغار المرسلات .

وهذه السورة هى التى قرأها رسول الله ﷺ فى صلاة المغرب وما صلى بعدها حتى قبض[1] .

صلتها بما قبلها :

أن الله قد ذكر فى آخر سورة الإنسان طرفاً من تهديد الكفار بالعذاب فى الآخرة « إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً » وأتى فى أول سورة (والمرسلات) بمزيد من الوعيد والعذاب للكفار حتى استغرق هذا أكثر السورة ، وذلك من أولها إلى الآية الأربعين ، فكأن هذه الآيات من سورة (المرسلات) امتداد لآخر سورة الإنسان ، كما أن سورة الإنسان قد ضم أكثرها جزاء المحسنين بدءا من الآية الخامسة « إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا » إلى الآية الثانية والعشرين : « إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا » .

وفى سورة والمرسلات جاء ذكر ثواب المتقين فى صورة مجملة : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ...) فالسورتان تلتقيان فى وعد المؤمنين ووعيد الكافرين .

---

(١) حديث قراءته - صلى الله عليه وسلم - فى المغرب بالمرسلات وهى آخر صلاة صلاها متفق عليه من حديث أم الفضل.

أهم مقاصد السورة :

١ - جاء أولها مبيناً لعظيم قدرة الله وأنه هو - سبحانه - المالك لجميع خلقه ، يرسل ماشاء على من يشاء ، وينشر من شاء فى فسيح ملكه وملكوته ، وينزل الرحمة والآيات بوساطة الذين يريدهم ويختارهم من خلقه على من اصطفى من عباده وارتضاهم لرسالته : (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ...) .

٢ - جاءت السورة بعد ذلك تهدد المكذبين وتبين لهم أن الله أباد وأهلك قوماً بعد قوم من الضالين المكذبين : (أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ..) .

٣ - أبانت السورة الكريمة أن أمر العباد إليه وحده من أول خلقهم إلى نهاية آجالهم :

(أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ) :

٤ - ذكرت السورة بعضاً من نعم الله على عباده ، ثم أنذرت من كذب منهم بالعذاب الشديد :

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا) . إلى قوله تعالى : (فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) .

وكان ختام السورة ضرباً من إرخاء العنان للمكذبين المجرمين وإمهالهم ليتمتعوا ويأكلوا ثم تكون عاقبتهم الويل والثبور والهلاك والبوار (كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾)

المفردات :

(وَالْمُرْسَلَاتِ) : الريح ، وقيل غير ذلك .

(عُرْفًا) : متتابعة بعضها فى إثر بعض .

(فَالْعَاصِفَاتِ) : الريح الشديدة .

(وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا) : الملائكة تنشر أجنحتها عند نزولها ، أو تنشر وتحيى نفوس الجهلة والكفار ، وقيل غير ذلك .

(فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا) : الملائكة تفرق بين الحق والباطل .

(فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا) : الملائكة تلقى الوحى من عند الله وتنزل به على أنبيائه .

(عُذْرًا) : من عذر : إذا محا الإساءة ، وقيل غير ذلك .

(نُذْرًا) : من أنذر : إذا خوّف .

التفسير

١ - ٧ - (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) :

أقسم الله - سبحانه - فى أول تلك السورة الكريمة بأشياء عظيمة من خلقه ذكر - عز وجل - صفاتها ولم يذكر أسماءها ، لذا اختلف المفسرون فى تعيينها وبيان المراد منها اختلافاً كثيراً ،

والذى يتضح أن المقسم به هنا شيئان ، وهما : الريح ، والملائكة ؛ لأن الله قد فصل بينهما بالعطف بالواو لإشعار ذلك بالمغايرة ، لأن الشأن أن يكون المعطوف بالواو غير المعطوف عليه .

أقسم - عز شأنه - أولاً بالريح المرسلة على الكفار لعذابهم واستئصالهم ، والريح - كما بين القرآن الكريم - يرسلها الله للعذاب ، قال تعالى : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »[١] كما توصف الريح بالعصف - وهو الشدة - لإهلاكها من ترسل عليهم ، أولأنها تأتى بالعصف-وهو ورق الزرع وحطامه ، أو تُنْعَتُ بذلك لسرعتها فى مُضِيِّهَا لتنفيذ أمره قال تعالى : « وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا »[٢] ويجوز أن يراد من المرسلات ما يشمل ويضم - أيضا - رياح الرحمة التى تسوق وتثير السحاب وتلقح النبات وتكون مبشرات بالخير ؛ لأن هذه الرياح قد ورد فى القرآن الكريم أن الله يرسلها كما يرسل ريح العذاب ، قال تعالى : « اللهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ »[٣] وقال : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ »[٤] وقال :- « وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ »[٥] . فكل من ريح العذاب ورياح الخير والرحمة جند من جند الله « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ »[٦] .

هذا ، وعطف العاصفات على المرسلات بالفاء للإيذان والتنبيه على أنه من عطف الصفات أى : من عطف صفة على صفة أخرى لموصوف واحد .

---

(١) من الآية ١٦ من سورة فصلت .
(٢) من الآية ٨١ من سورة الأنبياء .
(٣) من الآية ٤٨ من سورة الروم .
(٤) من الآية ٢٢ من سورة الحجر .
(٥) من الآية ٤٦ من سورة الروم .
(٦) من الآية ٣١ من سورة المدثر .

وأقسم - سبحانه - ثانياً بالملائكة وهى من أشد خلق الله قوة ، ووصفها بالناشرات لأنها تنشر أجنحتها فى الجو عند نزولها بالوحى ، أو لنشرها وإحيائها النفوس التى تشبه الموتى بسبب مافيها من الكفر والجهل ، وذلك بما تنزل به من لدن ربها على الأنبياء والرسل من الوحى الذى تحيا القلوب به ، كما نعتها بالفارقات لأنها تفرق بين أصالة الحق وزيف الباطل ، وذلك بما تنزل به من عند ربها إلى الرسل ، ووصفها كذلك بالملقيات ذكرا لإلقائها الذكر وهو الوحى على الأنبياء ليبلغوا ذلك لأممهم إعذارًا وإنذارًا ، وهنا أيضاً عطف (فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً) و (فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا) على (وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا) لبيان أن تلك الصفات لموصوف واحد وهم الملائكة .

والمعنى : أقسم - سبحانه - بكل من الريح التى يرسلها لعباده عذابًا لهم أو رحمة بهم متتابعة ومتتالية كالعرف وهو ما يكون من شعر وريش على العنق من الفرس ونحوه ، وأقسم - كذلك - بالملائكة التى تنشر أجنحتها عند النزول بأمر الله أو تنشر رحمته وتفرق بين الحق الأبلج والباطل الزائف « عُذْرًا » أى : تلقى بالوحى على رسل الله لإزالة إساءة المسيئين الذين : أخلصوا التوبة وأنابوا إلى ربهم ، وذلك بقبول الله لأعذارهم ، قال الراغب : عذرت فلاناً : أزلت نجاسة ذنبه بالعفو عنه ، كقولك : غفرت له ، أى : سترت ذنبه .

أو المراد أن الله يزيل عذرهم ويقطع حجتهم التى قد يحتجون بها لدى الله كادعائهم أن الله لم يرسل لهم من يرشدهم ويهديهم ، فأرسل إليهم الرسل وذلك على حد قوله : « رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ »[1] . (أَوْ نُذْرًا) أى : لإنذار المبطلين والعصاة وتخويفهم وترهيبهم .

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ): هذا هو جواب القسم ، أى : إن الذى توعدون به على لسان الرسل من مجىء يوم القيامة وما فيه من نشر وحشر وحساب ثم إلى جنة أو إلى نار هو واقع بكم ونازل عليكم لا محالة لأنه الحق .

---

(١) من الآية ١٦٥ من سورة النساء .

(فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾)

المفـــردات :

(طُمِسَتْ) : محقت ومحيت .

(فُرِجَتْ) : فتحت وشقت فكانت أبواباً .

(نُسِفَتْ) : فرقتها الريح بسرعة .

(أُقِّتَتْ) : بلغت وانتهت إلى ميقاتها الذى كانت تنتظره ، وهو يوم القيامة .

(أُجِّلَتْ) : أخرت .

(وَيْلٌ) : هلاك ، وقيل : هو واد فى جهنم .

التفســير

٨ـ ١٥ ـ (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَآءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

هذا بيان لأمارات يوم القيامة وعلامات عليه ، أى : إذا النجوم قد ذهب ضوؤها ومحى نورها ، أو محقت ذواتها وانتثرت وانكدرت ، وإذا السماء فتحت وشقت وتصدعت فكانت أبواباً ، وإذا الجبال نسفت كما ينسف الحب بالمنسف ، وذلك كقوله تعالى : « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا » وقيل : إزالتها من مقارّها وأماكنها بسرعة ، من : انتسفت الشىء :

إذا اختطفته ، وإذا الرسل بلغت ميقاتها الذى كانت تنتظره وهو يوم القيامة ، أو : وإذا الرسل عُين وحُدد لها الوقت الذى تحضر فيه للشهادة على أممهم ، إذا حصل هذا ووقع ما سبق كان ذلك أمارة وعلامة على أن القيامة قد أظلتهم ونزلت بهم ، فهذه الأمور هى مقدماتها وسابقتها .

(لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ) الضمير فى قوله : (أُجِّلَتْ) راجع إلى ما جاءت به الرسل - عليهم السلام - أى : لم أخرت الأمور المتعلقة بالرسل من تعذيب الكفرة وتنعيم المؤمنين وما كانت الرسل تذكره وتحدث به من أمور الآخرة وأحوالها وأهوالها ؟ ويجوز أن المراد من الضمير (أُجِّلَتْ) لما سبق من طمس النجوم وتشقق السماء ونسف الجبال وتأقيت الرسل . وهذه الآية الكريمة جاءت وسبقت على طريق الاستفهام الذى يفيد التعظيم والتعجيب من هول وشدة ذلك اليوم (لِيَوْمِ الْفَصْلِ) أى : أجلت هذه الأمور ليوم الفصل والقضاء بين الخلائق ، وذلك مثل قوله تعالى : (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ)[1]

(وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ) : هذا تهويل وتعظيم آخر ، أى : وما أعلمك بيوم الفصل وشدته ومهابته وقوة وقعه على النفوس (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) : وهذا أيضاً تهويل ثالث لما يحدث فى هذا اليوم ، أى : هلاك كبير وبوار عظيم للمكذبين بالتوحيد والجاحدين للنبوة والمعاد ، وبكل ما ورد عن الأنبياء والرسل وأخبروا به .

وجاءت هذه الآية : (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) فى السورة الكريمة عشر مرات ، ولعل سر تكرارها أنها تذكر فى كل مرة متصلة بالجرم والذنب الذى جاءت للتحذير والتخويف منه والتهديد والوعيد عليه ، فيكون لها بذلك أكبر الأثر فى الزجر والمنع ؛ لأن الذنب إذا قارنه عقابه واتصل به عذابه كان ذلك آكد فى الزجر وأقوى فى الردع ، وأدعى إلى البعد والتنائى عنه .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة الدخان .

هذا والمعهود فى مثل هذا المقام أن تأتى كلمة (ويل) وما يماثلها منصوبة على أنها مصدر ساد مسد فعله ، أى : نائب عنه يقصد به الدعاء ، كأن يقال مثلا : ويلا لهم ، أى هلاكا لهم ، ولكنه عدل به إلى الرفع على الابتداء « ويل » للدلالة على أن الهلاك والثبور ثابت لهم ودائم عليهم لا يزايلهم ولا يتجاوزهم ؛ لأن الجملة الاسمية - كما هو معروف - تدل على الثبوت والدوام .

ومعلوم أن هذه الآية فى كل مرة قد جاءت مهددة ومنذرة من ذنب وجرم غير الذى جاءت به فى أى من المواضع الأُخرى .

وجاء فى تفسير الإمام القرطبى عند تفسير هذه الآية : (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) ما نصه : وكرره فى هذه السورة عند كل آية لمن كذَّب ؛ لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم ، فإن لكل مكذب بشىء عذاباً سوى تكذيبه بشىء آخر ، ورُبَّ شىء كذَّب به هو أعظم جرماً من تكذيبه بغيره لأنه أقبح فى تكذيبه وأعظم فى الرد على الله ، فإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك وعلى قدر وفاقه وهو قوله : (جَزَاءً وِفَاقاً) ا هـ .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « عُرِضَتْ عَلَىَّ جهنم فلم أر فيها وادياً أعظم من الويل » وعلى كل حال فمآل الكافرين الهوان والعذاب والثبور والهلاك .

(أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾)

المفـــردات :

(أَلَمْ) : هذا استفهام عن انتفاء إهلاك الله للمجرمين ، جاء على وجه الإنكار ، فأفادَ إثبات الإهلاك وإيجابه ، فكان معناه : أهلكنا الأولين . وقال الراغب : (لم) نفىٌ للماضى وإن كان يدخل على الفعل المستقبل ، ويدخل عليه ألف الاستفهام للتقرير .

(ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ) أى : نلحق الآخرين بالأولين .

التفسـير

١٦ – ١٩ – (أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : قد أهلكنا الأولين السابقين جميعاً ممن كذبوا بالرسل ، مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ، وإهلاكُهم وتدميرُهم أمر ثابت مقرر قد وقع وحصل .

(ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ) : هذا وعيد وزجر لأهل مكة ومن على شاكلتهم من المشركين والكافرين ، أى : سنفعل بكم مثل هذا النكال ، وننزل بكم نظير هذا العذاب إن بقيتم على ما أنتم عليه من الشرك والضلال ، فهذه هى سنتنا وطريقتنا فى عقاب كل من يجرم ويكفر : نأخذه ونهلكه مثل إهلاكنا من سبق من المجرمين المكذبين ، وعلى هذا فالمراد من (الْأَوَّلِينَ) كل من كذّب من الأمم السابقة ، والمراد من (الْآخِرِينَ) هم أهل مكة وأضرابهم .

وقيل المعنى : إننا أهلكنا الأولين من قوم نوح وعاد وثمود ، ثم فعلنا ذلك بالآخرين ممن أتى بعدهم ونهج نهجهم كقوم شعيب وقوم لوط وقوم موسى ، ومثل ذلك الفعل الباطش الشديد والعذاب الأليم نفعل بكل مجرم عات جبار ، وعلى هذا الرأى الأخير يكون المقصود من (الْأَوَّلِينَ) أقواماً سبقوا بالكفر كقوم نوح وغيرهم ، وبالآخرين أقواماً سواهم ممن سلف من المجرمين كقوم شعيب ولوط ومن كان يناظرهم ، ويكون قوله تعالى : (كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ) قد جاء إنذاراً وتخويفاً من عاقبة الكفر وسوء أثره كى يرتدع وينزجر أهل الشرك والكفر بعد بعثته - ﷺ - وإلاّ كان مآلهم التدمير والهلاك ؛ لأن الله قد أهلك من أهلك لكونهم مجرمين ، فهذا الحكم عام فى جميع المجرمين ؛ لأن عموم العلة - وهى الإجرام - يقتضى عموم الحكم وهو العذاب .

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) أى : إن هؤلاء وإن أهلكوا وعذبوا فى الدنيا فلن يكون هذا نهاية هوانهم وعذابهم ، فالمصيبة العظمى والطامة الكبرى معدة ومهيأة لهم تنتظرهم يوم القيامة .

(أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾)

المفـــردات :

(مَآءٍ مَّهِينٍ) : ماء ضعيف حقير وهو النطفة .

(قَرَارٍ مَّكِينٍ) : مكان حصين حريز وهو الرحم .

(إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ) : إلى أن نصوره ونسويه ، أو إلى وقت الولادة .

(فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) : قدَّرنا ذلك وأحكمناه ، أو قدَرْنا على ذلك وتمكنا منه .

التفسير

٢٠ ـ ٢٤ ـ (أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : خلقناكم من ماءٍ حقير وهو النطفة المذرة ، وجعلنا هذه النطفة وثبتناها فى مكان حصين وهو رحم المرأة ، إلى أن يتم خلقه وتصويره وتسويته فينزل من ذلك الرحم فى وقت معلوم وزمن مقدر وهو وقت الولادة (فَقَدَرْنَا) أى : قَدَّرنا ذلك ودبرناه وأحكمناه فجاء بشرًا سويًّا ، أو تمكنا من ذلك وقدرنا عليه لأنه فى قبضتنا وتحت سلطاننا وقهرنا (فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) : فنعم المقدرون لذلك نحن ، أى : قدرتنا هى المدح والثناء على الله منه ـ سبحانه ـ لأنه صاحب المن والفضل ، وهو مولى النعم والحكيم الخبير ، فليس أحد يدانيه فى ذلك ، أو : فنعم القادرون على ذلك نحن إذ لا يقدر عليه أحد سوانا ، فإلينا يرجع الأمر كله . (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) : بعد أن بين الله لهم عظيم إنعامه عليهم بخلقهم وتصويرهم فى أحسن هيئة وأبدع صورة جاء تخويفهم بالويل والهلاك ؛ لأن النعمة إذا

جلَّت وعظمت كانت جنايتهم فى حقه – تعالى – بالإنكار والتكذيب أقبح وأفحش. وكان العقاب على ذلك أشد وأفظع .

(أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾)

المفـــردات :

(كِفَاتًا ، أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا) : ضامة وجامعة للأحياء على ظهورها. وللأموات فى بطنها .

(رَوَٰسِىَ) : ثوابت .

(شَامِخَاتٍ) : طوال .

(مَآءً فُرَاتًا) : عذبًا حلو المذاق .

التفســير

٢٥ – ٢٨ – (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ، أَحْيَآءً وَأَمْوَاتًا ، وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتًا ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : قد جعلنا الأرض ضامة وجامعة لكم فى حياتكم ؛ فذللها لتمشوا فى مناكبها وتسيروا فى جنباتها وطرقها . وتسكنوا فى منازلها ودورها ، وجعلها أيضًا جامعة لما تحتاجون إليه من أمر معاشكم . كما جعلها ضامة وكافتة للأموات يدفنون فى جوفها . وجاء التنكير فى قوله : (أَحْيَآءً وَأَمْوَاتًا) للتفخيم والتكثير . أى : تضم وتكفت أحياء لا يعدُّون وأمواتًا لا يحصرون . كما أوجدنا وخلقنا فى الأرض جبالاً ثوابت عاليات كى لا تميد الأرض ولا تضطرب بكم ؛ لتسلكوا فيها سبلاً فجاجًا وطرقًا كثيرة. وذلك فى أمن ويسر فضلاً عن

أن فى الجبال بعد ذلك من الفوائد الجليلة ما يعطف القلب ويلفت النظر إلى التفكر فى مزيد فضل الله على الإنسان ، إذ أن هذه الجبال تنزل الأمطار عليها وترتطم بها السحب الركامية ويحدث من ذلك السيول الجارفة التى تشق طريقها فى الأرض وتتكون الأنهار العذبة فيسقى الله منها الإنسان والحيوان ، وينبت الزرع ويدر الضرع ، وتحيا الأرض بعد موتها ، وذلك مما يدعو إلى التبصر والاعتبار . وجاء قوله تعالى : (وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا) أى : عذبا سائغا شرابه ، جاء كالأثر الطيب المبارك المترتب على تذكير الله لهم بنعمة خلق الجبال وإيجادها .

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) أى : عذاب شديد للمنكرين لهذه النعم التى لا يخفى نفعها ولا ينكر أثرها العظيم إلا كل مكذب جاحد .

(ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(انطَلِقُوا) : سيروا واذهبوا .

(ظِلٍّ) : دخان .

(لَا ظَلِيلٍ) : غير مظل من حر الشمس .

(وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ) اللهب : ما يعلو على النار إذا اضطرمت ، أى : لا يدفع من لهب جهنم شيئا .

(بِشَرَرٍ) : جمع شررة ، وهو ما يتطاير من النار متبددا فى كل جهة .

(كَالْقَصْرِ) : كالبناء العالى العظيم ، وقيل : غير ذلك .

(جِمَالَةٌ) : جمع جمل ، وقيل : غير ذلك وسيأتى .

التفسير

٢٩-٣١- (انطَلِقُوٓا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * انطَلِقُوٓا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ) :

أمر الله هؤلاء المكذبين - أمر إهانة وتوبيخ وتقريع - أن يذهبوا ويسيروا إلى ما كانوا يجحدون به وينكرونه من عذاب يوم القيامة ؛ أمرهم بذلك أولًا أمرًا عامًّا ولم يبين لهم فيه كنه العذاب ولا صفته ولا صورته ، ثم أمرهم - ثانيًا - بقوله : (انطَلِقُوٓا) أى : اذهبوا لتلقى أول مراتب هذا العذاب ومنازله ، الذى وضحه - سبحانه - بقوله : (إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ) أى : إلى الاستظلال بدخان جهنم الذى قد انقسم وتفرق - لعظمه وشدته - إلى ثلاث شعب ؛ شعبة وطائفة منه تكون من فوقهم ، وأخرى من تحتهم ، وثالثة تحيط بهم من كل جانب ، وذلك كقوله : « لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ »[1] ، وقوله : « يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ »[2] أو شعبة على يمينهم ، وشعبة على يسارهم ، وشعبة ثالثة من فوقهم .

ويحتمل أن تكون تلك الشعب الثلاث للمنافقين ، وللكافرين ، وللعصاة من المؤمنين ، لكل فريق شعبة توافق وتناسب جرمه وذنبه ، فتظلهم تلك الشعب حتى يفرغ من حسابهم ، أما المؤمنون فهم فى هذا الوقت فى ظل عرش الله .

(لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ) : جاءت هذه الآية قاطعة لرجائهم ومخيبة لآمالهم من أن يكون فى ذلك الظل راحة لهم ؛ إذ قد بين - سبحانه - أنه غير مظل وغير مفيد ولا مبعد من يستظل به من حر الشمس ، ففى الأثر : إن الشمس تقرب يوم القيامة من رءوس

---

(١) من الآية : ١٦ من سورة الزمر .

(٢) من الآية : ٥٥ من سورة العنكبوت .

الخلائق . وليس عليهم يومئذ لباس ولا كفان فتلفحهم الشمس وتسفعهم[١] ، وتأخذ بأنفاسهم ، ويمتد ذلك اليوم ، ثم ينجى الله برحمته من يشاء إلى ظلٍّ من ظلّه ، فهناك يقولون : فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ، ويقال للمكذبين : انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون من عذاب الله وعقابه : كذلك لا يدفع عنهم هذا الظل لهب النار ، وقيل : لا يحول بينهم وبين العطش[٢] الذى تنالهم شدته وإنما سمى ما هم فيه ظلاً على طريق التهكم بهم والسخرية منهم .

٣٢ - (إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ) :

أى : إن النار ترمى وتقذف بشرر - وهو ما يتطاير من النار متبددًا فى كل جهة - كل شررة منه فى عظمها كالقصر . وهو البناء العالى العظيم ، أو الحِصن المنيع - وقيل : المراد من القصر : جمع قَصَرة ، وهى الحطب الجزل الغليظ ، أو هو أصول النخل والشجر العظام وأيًّا ما كان الأمر فإنها النار التى وقودها الناس والحجارة التى تكاد ينفصل بعضها عن بعض من شدة غضبها على الكفار « تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ »[٣] .

٣٣ - (كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ) :

الجمالة : جمع جمل ، لحقت به التاء لتأنيث الجمع . أو أن جمالة : جمع جمال ، وجمال : جمع جمل ، فيكون من قبيل جمع الجمع .

وإذا كانت الشررة مثل القصر الضخم أو الحصن العالى العظيم أو كأصول الشجر العظام فكيف يكون حال النار التى ترمى بذلك ؟ أعاذنا الله منها .

وشبه الشرر - أولًا - بالقصر لعظمه وضخامته ، ثم شبه - ثانيًا - فى اللون والكثرة والتتابع وسرعة الحركة بالجمالات الصفر ، أى : السود التى تضرب إلى الصفرة ، قال

---

(١) الكفان : وقاء كل شىء . ولفحت النار بحرها : أحرقت . وسفع السموم وجهه : لفحة لفحا يسيرا .
(٢) قال قطرب : اللهب هنا : العطش . يقال : لهب لهبا ورجل لهبان ، وامرأة لهبى .
(٣) من الآية : ٨ من سورة الملك .

الفراء : لا ترى أسود من الإبل إلّا وهو مشوب بصفرة ؛ والشرر إذا تطاير فسقط وفيه بقية من لون النار كان أشبه بالجمل الأسود الذى يشوبه شئ من الصفرة . وقال الإمام الفخر الرازى : وزعم بعض العلماء أن المراد هو الصفرة لا السواد ؛ لأن الشرر إنما يسمى شررًا ما دام يكون نارًا ، ومتى كان نارًا كان أصفر ، وإنما يصير أسود إذا انطفأ ، وهناك لا يسمّى شررًا ، وهذا القول عندى هو الصواب . اهـ .

٣٤ ـ (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : خزى وهوان وعذاب لهؤلاء الذين ينكرون ويجحدون هذا الوعيد أو يسخرون منه .

(هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾)

المفـــردات :

(لَا يَنطِقُونَ) : لا يتكلمون ولا ينطقون بشىء ينفعهم .

(فَيَعْتَذِرُونَ) : فليس لهم عذر يعتذرون به ويحتجون .

التفســير

٣٥ ـ (هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ) :

الإشارة فى قوله : (هَٰذَا يَوْمُ) إلى وقت دخولهم النار ، أو مشاهدتهم لها ، أى : هذا يوم لا يتكلمون فيه بشىء وذلك لعظم دهشتهم وفرط حيرتهم واضطرابهم ، ولا ينافى أن لهم نطقًا وكلامًا فى موطن وموضع آخر ؛ لأن يوم القيامة طويل ، له مواقيت ، فنى بعضها ينطقون وفى بعضها لا ينطقون ، أو أنهم لا ينطقون بشىء ينفعهم ؛ فجعل نطقهم كلا نطق قال الحسن : لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون .

٣٦ - (وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) :

أى : أنهم لا يؤذن لهم فى العذر والتنصل مما أتوا به من جرائم وقبائح (فَيَعْتَذِرُونَ) وهم أيضًا لم يعتذروا ، وكونهم لم يعتذروا ليس راجعًا إلى عدم الإذن لهم فى الاعتذار ، ولكنه راجع إلى عدم العذر فى نفسه ، أى أنه لا عذر لديهم يعتذرون ويحتجون به ، ويستندون إليه . وقال الزمخشرى : (فَيَعْتَذِرُونَ) عطف على (يُؤْذَنُ) منخرط فى سلك النفى ؛ أى : أن النفى يشملهما وينصب عليهما معًا .

٣٧ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : هوان لهم ، وخزى يلحقهم من انقطاع عذرهم وافتضاح أمرهم على رءوس الأشهاد يوم القيامة ، بالإضافة إلى رؤيتهم المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم فى الدنيا ، وقد فازوا بالثواب العظيم من رب العالمين ، أما هم فقد باءوا بالنكال والذل بمشاهدتهم النار وأهوالها التى هى مثواهم وبئس المصير .

(هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(وَالْأَوَّلِينَ) : السابقين لكم .

(كَيْدٌ) : حيلة ومكر تمكرون به .

التفسير

٣٨ - (هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ) :

أى : هذا يوم يفصل الله فيه بين الخلائق ، فيتبين المحق من المبطل ، ويفصل بين الرسل وأممهم ، كيلا يكون لأحد حجة .

(جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ) أى : جمع الذين كذبوا محمدًا والذين كذبوا النبيين من قبله .

٣٩ - (فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ) :

هذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، أى : فإن قدرتم على الكيد والمكر والخداع والتلبيس فافعلوا ، وأنّى لكم ذلك ؛ فإن الحيل والمخادعة فى هذا اليوم قد انقطعت وأصبحت غير ممكنة أو فإن تمكنتم من أن تتخلصوا من قبضتى وتنجوا من حكمى فافعلوا ، ولكنكم لا تقدرون ، وذلك كقوله تعالى : « يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ »[1] ، وقوله - سبحانه - فى الحديث القدسى : « يَا عبادِى إنكمْ لَنْ تَبْلُغوا نَفْعِى فَتنفعونِى ، ولَن تَبلغُوا ضُرى فَتَضرونِى » . فخطاب الله لهم فى هذه الحالة نهاية فى تخجيلهم وتقريعهم وتوبيخهم ؛ لذا جاء عقيبه قوله تعالى :

٤٠ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : هوان وإيلام لهم ، لأن التوبيخ لهم فى هذا الموطن ضرب ولون من ألوان العذاب

(إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾)

المفـــردات :

(مِمَّا يَشْتَهُونَ) : مما يتمنون .

(هَنِيئًا) : لا يشوبه سقم ولا تنغيص .

التفسـير

بعد أن أبان - سبحانه - ما ينتظر الكفار والعصاة من بعثهم ودفعهم (إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ ...) إلخ ما جاء فى تهديدهم ووعيدهم ، أخبر

(١) الآية ٣٣ من سورة الرحمن .

- جل شأنه - بما يصير إليه المتقون وينعمون به ، فبيَّن أنه - سبحانه - قد أعدَّ وهيأ لهم أنواعًا من نعمه فقال :

٤١، ٤٢ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ) :

كأنه قيل : ظلال الكافرين ما كانت ظليلة ، وما كانت مغنية لهم عن اللهب والعطش أما المتقون فظلالهم ظليلة ؛ لأنهم فى ظلال الأشجار وظلال القصور فى الجنة وفيها عيون عذبة مغنية لهم من العطش ، ومانعة وحاجزة بينهم وبين اللهب ، ومعهم الفواكه التى يشتهونها ويتمنونها .

٤٣ - (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أمرهم - جل شأنه - أمر تكريم وإعزاز فقال لهم : (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى : كلوا أكلا ، واشربوا شربًا خالص اللَّذة لا يشوبه سقم ولا تنغيص وذلك جزاء عملكم الحسن وطاعتكم لله فى الدنيا دار التكليف، وفى هذا من إدخال السرور والرضا على نفوس المؤمنين ، وفيه ما فيه من التبكيت والتحسير للمكذبين ؛ لأنه يذكِّرهم بما فاتهم من النعم العظيمة ليعلموا أنهم لو كانوا من المتقين المحسنين لفازوا وظفروا بمثل تلك الخيرات ، ونالوا عظيم الدرجات ، ولكنهم كانوا فى سخط الله وغضبه وعظيم عذابه ؛ بسبب كفرهم وتكذيبهم .

٤٤ - (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) :

أى : مثل هذا الجزاء الحسن العظيم نكافئ ونجزى المحسنين لا بخس ولا نقص . والمحسنون : هم الذين أحسنوا فى تصديقهم بمحمد - ﷺ - وأحسنوا فى أعمالهم فى الدنيا .

٤٥ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : نكال وخزى على الكافرين حيث يرون السعادة للمؤمنين ، أما هم ففى العذاب خالدون .

(كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾)

المفـــردات :

(مُجْرِمُونَ) : كافرون أو عاصون .

التفسـير

٤٦ – (كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ) :

أى : الويل ثابت لهم فى حال مايقال لهم ذلك يوم القيامة ؛ تذكيرًا لما كان يقال لهم فى الدنيا وتحسيرًا وتخسيرًا لهم ، وهم جديرون أن يخاطبوا بذلك حيث تركوا الحظ الوفير ، والنصيب الجليل الكثير الدائم ، إلى القليل الحقير ، والنزر اليسير ، وآثروه وهو الزائل الفانى على الدائم الباقى ، و (المجرمون) هم الكافرون ، وقيل : كل مكتسب فعلًا يضره فى الآخرة من الشرك والمعاصى ، وفيه دلالة على أن كل مجرم نهايته تمتع أيام قليلة ثم يبقى عذاب وهلاك أبدًا .

٤٧ – (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : هلاك لهم يوم القيامة بسبب أكلهم وتمتعهم فى الدنيا بطعام وشهوات ذهبت لذاتها ، ويذوقون الآن حسراتها وشدائدها .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾)

المفـــردات :

(اركَعُوا) : صلوا ، وقيل : غير ذلك .

التفسـير

٤٨ – (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ) :

أى : وإذا قيل لهؤلاء المشركين : أطيعوا الله واخشعوا وتواضعوا له – عز وجل – وذلك بقبول وحيه – تعالى – واتباع دينه ، وارفضوا الاستكبار وحمية الجاهلية ، لا يخشعون ولا يقبلون ذلك ، ويصرون على ما هم عليه من التولى والإعراض والاستكبار ، وهذه حكاية

عمّا كانوا عليه فى الدنيا يذكرون بها فى الآخرة ؛ ليشتد ندمهم وتزيد حسرتهم وألمهم ، وقيل : وإذا قيل لهم : صلوا لا يصلون ؛ إذ المراد من الركوع هو الصلاة ؛ لأنه من أهم أركانها ، ويطلق عليها – كثيرًا – فى لسان الشرع .

روى عن مقاتل : أن الآية نزلت فى ثقيف ، فقالوا للرسول ﷺ : حط عنا الصلاة فإننا لا ننحنى ؛ فإنها مسبّة علينا ، فقال – عليه الصلاة والسلام – : « لَا خَيْرَ فى دِينٍ لَيْسَ فيهِ ركوعٌ ولا سجودٌ » ، وعن ابن عباس أنه قال : هذا يوم القيامة يدعون إلى السجود فلا يستطيعون السجود من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون فى الدنيا .

ويذكر أن الإمام مالكًا – رحمه الله – دخل المسجد بعد صلاة العصر – وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر – فجلس ولم يركع ، فقال له صبىٌّ : ياشيخ قم فاركع ، فقام فركع ولم يحاجّه بما يراه مذهبًا ، فقيل له فى ذلك ، فقال : خشيت أن أكون من الذين (إِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ) .

٤٩ – (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : ويل وثبور لمن يكذب هؤلاء الأنبياء الذين يرشدونهم إلى ما يجمع لهم من خيرات الدنيا والآخرة .

٥٠ – (فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) :

أى : إن لم يصدقوا بهذا القرآن العظيم الذى جاء بلغتهم وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، ثم هاجهم وأثارهم بقوله : « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »[1] ولكنهم أصابهم العى والحصر ، وعمهم وشملهم العجز ، أى : إن لم يصدقوا ويؤمنوا بهذه الدلائل اللطيفة مع تجليتها ووضوحها فبأى شىء يصدقون ويذعنون له بعد ذلك ؟! إنه العمى فى أبصارهم ، والرّانُ والطمس على قلوبهم ، والجحد والحسد فى نفوسهم ، وصدق الله العظيم : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ »[2] .

والله أعلم .

(١) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

(٢) من الآية ٣٣ من سورة الأنعام .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٩٠

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٤٠٨ — ١٩٩٠ — ٢٥٠٠٤


Bibliotheca Alexandrina
0402855